

سُورَةُ الْفِيلِ

حِينَ يَضِلُّ الْكَيْدُ وَتَتَهَاوَى الْقُوَّةُ
أَمَامَ تَذْيِيرِ اللَّهِ



✧ تَأْلِيف: رَدَّاد السَّلَامِيُّ ✧

سُورَةُ الْفِيلِ

حِينَ يَضِلُّ الْكَيْدُ وَتَهَاوَى الْقُوَّةُ أَمَامَ تَدْيِيرِ اللَّهِ

تأليف: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة المنهجية

السُّورَةُ الَّتِي اخْتَصَرَتْ جَيْشًا فِي خَمْسِ آيَاتٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ليست سورة الفيل حكايةً عن جيشٍ مضى فحسب، ولا سجلًا تاريخيًا يستعيد واقعةً بعيدةً ليحفظ أسماءَ رجالها، وعدد جنودها، وطريق مسيرها، وتفاصيل هزيمتها؛ وإنما هي بناءٌ قرآنيٌّ بالغ الإحكام، ينتزع الحدث من أسر الزمن، ويرفعه من حدود الواقعة إلى أفق السنّة، ومن ذاكرة المكان إلى بصيرة الإنسان، ومن مشهد الفيل الذي تقدّم لهدم البيت إلى كل قوةٍ يخدعها حجمها، وكل كيدٍ يظن أن إحكام الخطة يغنيه عن إذن الله، وكل طغيانٍ يقيس العالم بما يملك، ولا يرى فوق ما يملك يدًا تدبّر، وقدراً يترقّب، وأمرًا إذا جاء بدّل معادلات القوة قبل أن يملك الأقوياء وقتاً لمراجعة الحساب.

إنها سورة قصيرة، ولكن القصر فيها ليس قلةً في المعنى؛ بل شدةً في تركيزه، حتى لكان السورة قبضةً من نور ضُمّت فيها جغرافيا واسعة، وجيوش

متحركة، ونوايا مستترة، وفيلة ثقيلة، وقلوب مدعورة، وسماء نثأهب، وطير
تتوارد، وحجارة تنزل، وأجساد تنهاوى، ثم لا يبقى من الضجيج العسكري كله
إلا صورة أخيرة مهينة: ﴿كَعَصَفٍ مَأْكُولٍ﴾. خمس آيات فقط، لكن كل
آية منها تنقل المشهد من طورٍ إلى طور، وتجرد القوة المتغطرة من طبقة بعد
طبقة: تبدأ بإحضار الواقعة إلى البصيرة، ثم تكشف فشل الغاية قبل أن تشرح
وسيلة الإهلاك، ثم تستدعي الطير من جهات السماء، ثم تجعل ما يبدو
صغيراً أداةً لقهر ما يبدو هائلاً، ثم تختتم بمشهد لا يكفي بإعلان الهزيمة، بل
يكشف مقدار الهوان الذي انتهى إليه ذلك الاستعراض الخفيف.

لقد جاء أصحاب الفيل وهم يحملون منطلق الأرض في أقصى صورته كثافةً:
جيشٌ منظم، وسلطانٌ نافذ، وإرادةٌ عازمة، وآلةٌ لم يألُفها العرب في حروبهم،
وهدفٌ معلوم، وطريقٌ مرسوم، وبيتٌ لا تحرسه الأسوار، وبلدةٌ لا تملك
جيشاً يكافئ الجيش القادم؛ فكانت جميع المقدمات المادية تشير إلى نتيجة
واحدة، كأن هدم الكعبة قد وقع في الحساب قبل أن يقع في الواقع. غير أن
السورة جاءت لتكشف أن في الوجود مقدماتٍ لا تراها العين حين تنظر إلى
ظاهر المشهد، وأن القوة التي لا تحسب حساب الله تُدخل إلى معادلتها نقصاً
قاتلاً وهي تظن أنها أحكمت كل شيء، وأن ما يبدو محسوماً في تقدير البشر

قد يكون في علم الله بداية الانقلاب، وأن اللحظة التي يبلغ فيها الكيد أعلى درجات الثقة بنفسه قد تكون هي اللحظة التي يدخل فيها ﴿فِي تَضَلُّلٍ﴾.

ومن هنا فإن تدبر السورة لا ينبغي أن يتوقف عند السؤال: كيف هلك أصحاب الفيل؟ بل لا بد أن يمتد إلى سؤال أعمق: كيف يصنع القرآن وعي الإنسان بالقوة من خلال هلاكهم؟ وما الذي أراد الله أن يبقى في القلب بعد أن غاب الجيش، ومات قاده، وسكنت صرخاته، وصار خبره آياتٍ تتلى؟ إن القرآن لا يعيد الواقعة لينحنا متعة الانتصار على قومٍ ماتوا، بل ليحرر وعينا من الافتتان بكل جيشٍ جديد، وكل فيلٍ جديد، وكل طغيانٍ يبدل شكله ولا يبدل جوهره. إن الأسماء تزول، والأدوات نتطور، والإمبراطوريات تتعاقب، ولكن مرض القوة حين تنسى حدودها واحد، وكيد الباطل حين يتوهم أن الخطة المحكمة قدرٌ لا يُرد واحد، وربُّ البيت الذي أبطل كيد أولئك هو الله الذي لا يخرج من ملكه طاغية، ولا يستقل عن تديره جيش، ولا تنفذ في كونه إرادة إلا وقد أحاط بها علمه، وسبقها تقديره، وكانت تحت قهره وسلطانه.

وسنطلق في هذا الكتاب من أصلٍ منهجيٍّ يحفظ للسورة جلالها، ويمنع التأمل من أن يتحول إلى خيالٍ منفصل عن دلالة القرآن؛ فنبداً باللفظ كما

وضعه الوحي، وننظر في موقع الكلمة من السياق، وفي انتقال النظم من السؤال إلى التقرير، ومن الكيد إلى التضليل، ومن الأرض إلى السماء، ومن الفيل إلى الطير، ومن صلابة الجيش إلى هشاشة العصف المأكول. ثم نعبّر من الدلالة إلى التأمل، لا لنستبدل بالتفسير معنى غريباً، بل لنستخرج من المعنى القرآني طاقته في بناء البصيرة، وإصلاح تصور الإنسان عن الربوبية، والقوة، والتاريخ، والأسباب، والنتائج.

ولن نشغل كثيراً بالتفاصيل التي توسعت فيها الأخبار والروايات مما لم نتوقف عليه هداية السورة؛ لأن القرآن نفسه اختار من الواقعة ما يريد للإنسان أن يعرفه ويستبقيه. فلم يسمّ قائد الجيش في آياتها، ولم يذكر عدده، ولم يصف الطريق الذي جاء منه، ولم يسرد الحوارات التي وقعت قبل الهلاك؛ لأنه لا يريد أن يكون اسم القائد مركز المشهد، بل يريد أن يكون فعل الله هو المركز: ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾. إن البشر مولعون بأسماء الطغاة، والقرآن ينقل العين من الطاغية إلى رب الطاغية، ومن الفاعل الظاهر إلى المدبر الأعلى، ومن حركة الجيش إلى مصير الحركة كلها في قبضة الله.

ولهذا فإن أول ما ينبغي أن يضبط قراءتنا للسورة هو أن بطلها الحقيقي ليس الفيل، ولا الطير، ولا الحجارة، ولا حتى البيت من حيث هو بناء؛ بل

ربُّ البيت سبحانه. الفيل عنوان الواقعة، والطير جندٌ مأمور، والحجارة أداةٌ منفّذة، والبيت موضع الحماية، أما الفعل المحيط بكل ذلك فهو فعل الله: جعل كيدهم في تضليل، وأرسل عليهم، وجعلهم كعصف مأكول. نتوالى الأفعال الإلهية في السورة، فيتضاءل أمامها كل فاعل سواه، ونعلم أن التاريخ وإن امتلأت صفحاته بأسماء الملوك والقادة، فإن وراء ظاهره إرادةً أعلى لا يخرج عنها ملكٌ ولا قائد، وأن الذي يملك ابتداء الحركة لا يملك بالضرورة تمامها، والذي يقرر المسير لا يملك الوصول، والذي يحشد الوسائل لا يضمن النتيجة.

والأصل الثاني أن السورة لا تدعو إلى إهمال الأسباب، ولا تقرر أن كل قوة باطلة ستنهار بالطريقة نفسها، ولا تمنح الإنسان الحق في ترك واجبه منتظراً طيراً أبابيل؛ فالمشهد معجزة إلهية مخصصة، وحماية أرادها الله لبيته في ذلك الظرف، أما دلالته الباقية فهي أن الأسباب لا تستقل بالفعل، وأن القوة مهما عظمت لا تتحول إلى إله، وأن الواجب الإنساني لا يناقض التوكل، كما أن التوكل لا يعني ادعاء التحكم في كيفية نصر الله وموعده. نحن نأخذ بالأسباب لأن الله أمرنا، ولا نعبد الأسباب لأن الله وحده ربها؛ بنبي القوة ولا نفتتن بها، ونقاوم الكيد ولا نظن أن نجاتنا رهينة بحساباتنا وحدها، ونعلم أن الله من الجنود والتدابير ما لا يبلغه خيال البشر.

والأصل الثالث أن حماية الله للبيت يومئذ لا تعني تزكية كل من كان حول البيت، ولا إقرار ما كانت عليه قريش من الشرك والانحراف؛ فقد حمى الله حرمة البيت لأن للبيت شأنًا أرادَه الله، لا لأن كل مجاورٍ له كان مرضياً عنه. وهذه دلالة دقيقة تفصل بين حفظ الله لمقصدٍ عظيم، ورضاه عن الأشخاص القائمين في محيطه. فقد ينصر الله حقاً بيد من لم يكتمل صلاحه، وقد يحمي معنى مقدساً مع بقاء من حوله محتاجين إلى الهداية، وقد يدفع عدواناً عن قوم ثم يحاسبهم على ما انخرفوا فيه؛ لأن أفعال الله تجري على علم وحكمة، لا على التصنيفات الساذجة التي تجعل كل من نجا صالحاً، وكل من ابتلي مطروداً، وكل من استُخدم في قدرٍ إلهيٍّ مرضياً عنه في جميع شأنه.

والأصل الرابع أن السورة تعيد تعريف القوة. فالقوة في التصور المادي هي ما يمكن عده ووزنه ورصده: عدد الجنود، وصلابة السلاح، وضخامة الحيوان، واتساع النفوذ؛ أما السورة فتكشف أن القوة الحقيقية ليست في حجم الأداة، بل في الجهة التي يأذن الله لها أن تفعل. الفيل أضخم من الطير، والجيش أشد من الحجارة الصغيرة في الظاهر، ولكن المقارنة بين الأجام تصبح عبثاً حين يكون الطير مرسلًا، والجحر مسخرًا، والجيش واقعاً تحت الحكم. ليست العبرة بما يكون عليه الشيء في ذاته فحسب، بل بما يودعه الله فيه من أثر، وبالمهمة التي يكلفه بها، وبالقدر الذي يحمله إلى موضعه. قد تكون

الأداة ضعيفةً في عينك، لكنها حين تدخل في أمر الله تصبح أقوى من منظومةٍ كاملة؛ وقد تكون الإمبراطورية هائلةً في عين أهلها، لكنها حين يخرج عليها حكم الله تصبح عاجزةً عن حماية أجساد جنودها.

أما الأصل الخامس فهو أن السورة تبني اليقين من خلال الذاكرة. إنها لا تبدأ بعبارة: كان في قديم الزمان جيشٌ جاء لهدم الكعبة، وإنما تبدأ بسؤال يهز المخاطب: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾. فالواقعة ليست خبراً بارداً، بل رؤيةٌ ينبغي أن تتجدد، ومعنى يجب أن يُستحضر حتى كأنه مشاهد. وقد فسر أهل التفسير هذه الرؤية بالعلم البالغ مبلغ اليقين؛ فالخبر كان مشهوراً قريب العهد من المخاطبين، فجاء التعبير بالرؤية ليحوّل المعرفة الموروثة إلى بصيرة حاضرة. وقد أشار الطبري إلى أنها رؤية بعين القلب، وبين ابن عاشور أن شهرة الواقعة جعلت العلم بها بمنزلة الأمر المشاهد .

ليس كل من عرف التاريخ قد رأى دلالته؛ فقد يحفظ الإنسان الوقائع ولا يبصر السنن، ويستعيد أسماء المهزومين ولا يتحرر من الخوف من أمثالهم، ويقرأ عن سقوط الطغاة ثم يقف مرتجفاً أمام طاغية عصره كأن الطغيان هذه المرة قد صار أبدياً. أما القرآن فيعلّمنا أن الذاكرة الإيمانية ليست مستودعاً للماضي، بل قوةٌ لتحرير الحاضر؛ لأن الذي يعلم كيف فعل الله بأصحاب الفيل

لا ينظر إلى كل فيلٍ جديدٍ بعينٍ خالية من اليقين، ولا يسمح لضخامة الباطل أن تحو من قلبه عظمة الله.

وسنتوقف في فصول هذا الكتاب أمام كل آية، لا بوصفها جملة منفصلة، بل بوصفها درجةً في سلم المعنى؛ فالآية الأولى تفتح عين البصيرة على الفاعل الحقيقي، والثانية تحكم على المشروع كله بالضياع، والثالثة تكشف دخول جندٍ غير محسوب في ميدان الصراع، والرابعة تصف وسيلة القضاء، والخامسة تعرض الخاتمة التي تذيب هيبة الجيش في صورةٍ من التفتت والهوان. ثم نجمع هذه الدرجات لنرى الهندسة الكاملة للسورة: كيف انتقل المشهد من قوة تصعد في الأرض إلى قضاء ينزل من السماء، ومن كيدٍ يطلب غايته إلى تضليلٍ يفقد الطريق، ومن أجسامٍ متماسكة في صفوف إلى بقايا متناثرة لا تملك من صورتها الأولى شيئاً.

إن سورة الفيل لا تقول للمستضعف إن طريقه لن يمسه الألم، ولا تعده بأن كل جيشٍ يعاديه سيهلك أمام عينيه في اللحظة التي يريد؛ لكنها تنزع من قلبه الوثنية الخفية التي تصنعها القوة حين يظنها الناس مطلقة. تقول له: لا تجعل حجم ما يواجهك أكبر من حقيقة ربك، ولا تقرأ الواقع بعينٍ واحدة ترى ما في الأرض ولا ترى من بيده الأرض والسماء، ولا تخط بين تأخر

الحكم وغيابه، ولا بين إمهال القوة واستقلالها، ولا بين امتلاك العدو للوسيلة وامتلاكه للنتيجة. إن بين الكيد وغايته مساحةً يملكها الله وحده، وفي تلك المساحة قد يضل الطريق، وقد تنقلب الوسيلة عبئاً، وقد يأتي الجند من حيث لم يحتسب أحد، وقد يصبح الذي خرج في زهوه مضرباً للمثل في الهوان.

هذه إذن رحلةٌ في خمس آيات، لكنها رحلةٌ إلى أعماق السؤال الإنساني عن القوة: من يملك؟ من يدبر؟ من يحمي؟ من يبطل؟ وكيف تتحول لحظةٌ ظن فيها الطغيان أنه يكتب النهاية إلى آيةٍ يكتب الله بها بدايةٍ وعيٍ جديد؟ سنفضي إلى السورة لا لتفرج على جيشٍ هلك، بل لنتفقد في داخلنا ذلك الانبهار القديم بكل فيل، وذلك الخوف الذي ينسى رب الفيل، وتلك الحسابات التي لا ترى إلا المحسوس، ثم نزن أنفسنا بميزان الوحي: هل نرى التاريخ كما يراه المؤمن، أم لا نرى إلا غبار الجيوش؟

الفصل الأول

عَلَى أَعْتَابِ الْبَيْتِ: حِينَ ظَنَّتِ الْقُوَّةُ أَنَّ الطَّرِيقَ

خَالٍ

قبل أن نلج إلى الآية الأولى، لا بد أن نقف أمام الصمت الذي سبق نزول السؤال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾. كان المشهد في ظاهره محكومًا بمنطق لا يترك للنجاة نافذة؛ جيشٌ يتحرك نحو مكة، يحمل في مقدمة زحفه فيلاً صار رمزًا لقوة لم يألفها أهل الجزيرة، ويقصد بيتًا لا تحيط به القلاع، ولا تحرسه الحاميات، ولا تملك البلدة القريبة منه ما تدفع به جيشًا منظمًا جاء وفي نفسه قرار الهدم. بدا الأمر كأن ميزان الأرض قد قال كلمته، وكأن البيت قد صار بين قوة لا يستطيع دفعها وأهل لا يملكون ردها.

لكن اللحظة التي تنتهي عندها قدرة البشر ليست نهاية القصة في القرآن. إنها في كثير من الأحيان بداية انكشاف طبقةٍ أعمق من التدبير، فحين لا يبقى في الصورة جيشٌ يواجه جيشًا، ولا سلاحٌ يقابل سلاحًا، تسقط الحجب التي ينسب الناس وراءها النصر إلى أنفسهم، ويظهر أن البيت لم يكن محفوظًا بقوة

ساكنيه، وأن المعتدي لم يُهزم بعقريّة خطة بشرية، وأن الواقعة ستبقى خالصة الدلالة على أن الله فعلاً لا يحتاج إلى أن يستعير هيئته من أدوات البشر.

كان أصحاب الفيل يظنون أنهم متجهون إلى بناء من حجارة، ولم يدركوا أنهم يتقدمون إلى قدر. ظنوا أن المسافة بين أقدامهم والكعبة طريقٌ تقطعه الجيوش، ولم يعلموا أن بين الإرادة والغاية إذناً لا يملكونه، وأن الإنسان قد يملك الحركة ولا يملك الوصول، وقد يملك الهدم ولا يملك أن يُنزل قدرته على الموضع الذي أراده الله محفوظاً، وقد يقطع الصحارى كلها ثم يهلك عند آخر خطوة؛ لأن الطريق لم يكن في حقيقته طريقاً إلى البيت، بل كان طريقاً إلى المصير.

وهنا يبرز الفرق بين منطق الطاغية ومنطق المؤمن: الطاغية يسأل عما يملك، والمؤمن يسأل عما يملك ما يملك الطاغية. الطاغية يرى الفيل ولا يرى خالق الفيل، ويرى الجيش ولا يرى من أحصى أنفاس جنوده، ويرى الطريق مفتوحاً ولا يرى القدر واقفاً عند نهايته، ويرى البيت ساكناً فيحسب السكون عجزاً، ولا يدري أن بعض السكون امتلاءً بتدبيرٍ لم يؤذن له أن يظهر بعد. إن القوة المادية تقرأ الصمت فراغاً، بينما يقرأ الإيمان الصمت انتظاراً لأمر الله.

ولم يكن ما جرى مجرد إنقاذٍ لبناء من الهدم؛ بل كان إعلاناً سابقاً لرسالةٍ ستخرج من جوار هذا البيت، وتعيد توجيه الإنسان من عبادة القوة إلى عبادة رب القوة. فالبيت الذي حماه الله من جيش الفيل سيُطهر بعد ذلك من الأصنام، وستخرج من رحابه دعوةٌ لا تجعل الحجارة معبودة، بل تجعل البيت قبلةً لعبادة الله وحده. وكأن الحادثة تمهيدٌ عظيمٌ يقول للتاريخ: إن لهذا البيت شأنًا لم يكتمل ظهوره بعد، وإن الأقدار تحرس موضعاً سيشهد قريباً أعظم تحولٍ في وعي الإنسان بربه.

لقد أراد المعتدون أن يجعلوا من البيت أثرًا بعد عين، فجعلهم الله هم الأثر الذي تتحدث عنه الأجيال، وأرادوا أن يحوا ذكره، فصار هلاكهم جزءًا من الذكر المتلو في رحابه، وأرادوا أن يثبتوا أن القوة تصنع القداسة وتهدمها متى شاءت، فأثبت الله بهم أن القوة حين تنفصل عن العبودية قد تتحول من سببٍ للمهابة إلى طريقٍ للفضيحة. بقي البيت، وذهب الجيش؛ بقيت القبلة، وتلاشى الفيل؛ بقيت الآيات، ولم يبق من الكيد إلا خبره.

ومن هنا تبدأ سورة الفيل قبل أن تبدأ ألفاظها في وجدان المتدبر: تبدأ من ذلك التناقض الهائل بين ما كان متوقعًا وما وقع، وبين حجم القوة وضآلة

المصير، وبين صخب البداية وصمت النهاية. ومن هذا التناقض يولد السؤال
القرآني الذي سيفتح الفصل الآتي:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾

ليس السؤال: ألم تسمع ماذا وقع؟ بل: ألم تر كيف فعل ربك؟ لأن المراد
ليس أن تعرف نهاية الجيش وحدها، بل أن ترى ربك من خلال ما فعل،
وأن تنتقل من الحدث إلى الفاعل، ومن الهلاك إلى القدرة، ومن القصة إلى
اليقين.

الفصل الثاني

﴿أَلَمْ تَرَ﴾: حِينَ تَتَحَوَّلُ الذَّاكِرَةُ إِلَى بَصِيرَةٍ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾

تبدأ السورة بسؤال، ولكنها لا تبدأ من منطقة الشك، ولا تنتظر من المخاطب جواباً مجهولاً؛ إنما تبدأ بسؤالٍ يحمل في داخله الجواب، ويستدعي من الذاكرة حقيقةً مستقرة، ثم ينفذ عنها غبار الاعتياد حتى تعود حيةً مؤثرة: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾. فبعض الحقائق لا يغيب عن الإنسان خبرها، ولكن يغيب عنه حضورها، وقد يعرف الواقعة معرفةً لا تغير قلبه، ويحفظ القصة حفظاً لا يصنع يقينه، ويمر بالأحداث العظيمة حتى تبهت في وجدانه من شدة الألفة؛ فيأتي السؤال القرآني لا لينحه معلومةً جديدة، بل ليعيد إليه قوة المعلومة القديمة، وينقله من سماع الخبر إلى شهود المعنى.

لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم قد شاهد الواقعة بعينه، ولكنها كانت قريبة العهد، متواترة الخبر بين أهل مكة، حاضرةً في ذاكرتهم، ظاهرة الآثار

في حديثهم؛ فجعل القرآن العلم المستيقن بمنزلة الرؤية. وهذه طريقة القرآن في تربية العقل: فليس المرئي وحده ما تدركه العين، بل قد تبلغ الحقيقة من الثبوت والوضوح مبلغاً تصبح فيه البصيرة أشد يقيناً بها من العين بما تشاهد. وكم من عينٍ رأت ولم تفهم، وكم من قلبٍ لم يشاهد الحدث ولكنه أبصر دلالاته! إن العين قد ترى سقوط الجيش، أما البصيرة فتري في سقوطه سلطان الله، وقد ترى العين الطير والحجارة، أما القلب فيرى وراءها التدبير الذي أرسل، وقد ترى العين أجساداً تنهاوى، أما الإيمان فيرى الكيد نفسه وهو يدخل في التيه قبل أن يهلك أصحابه.

إن القرآن لا يريد من الإنسان أن يكون خزانة أخبار، بل عيناً ترى الله في آثار قدرته، وتقرأ التاريخ بوصفه ميداناً تتجلى فيه الربوبية والحكمة والعدل والابتلاء. وما أكثر الذين يعرفون ما وقع لأصحاب الفيل، ولكنهم إذا وقفوا أمام قوة ضخمة في زمانهم ارتجفوا كأنهم لم يسمعوا بالسورة قط؛ لأن الخبر استقر في ذاكرتهم ولم يتحول إلى رؤية، ولأنهم قرؤوا الحادثة بوصفها استثناءً منتهاً، لا بوصفها باباً إلى معرفة الله، ولأنهم أبصروا الفيل القديم ولم يتعلموا كيف يبصرون كل فيلٍ جديد.

إن ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ دعوةً إلى استرداد البصر الإيماني الذي تنتزعه المظاهر من القلب. فالإنسان حين يعيش طويلاً داخل عالم الأسباب قد يتوهم أن ما يراه هو كل ما في الوجود، وأن القوة هي ما تظهره الشاشات، وأن التاريخ يصنعه من يملك الجيش والمال والمنبر، وأن المستقبل صورةٌ مكبرة من ميزان الحاضر. وحينئذٍ تأتي سورة الفيل لتقول له: إنك لم تر الواقع كله ما دمت لا ترى رب الواقع، ولم تفهم القوة ما دمت لا تعرف حدودها، ولم تقرأ التاريخ ما دمت تقرأ حركة الجند ولا تقرأ الحكم الذي يحيط بحركتهم.

فالرؤية التي تطلبها الآية ليست انبهاراً بالمعجزة وحدها، بل تصحيحاً لمنهج النظر. إنها تعلم الإنسان ألا يجعل المشهود حجاباً عن الغيب، ولا يجعل السبب ستاراً يخفي مسببه، ولا يظن أن الشيء الذي لا يراه غير موجود في المعادلة. كان أصحاب الفيل يرون ما معهم ولا يرون ما عليهم؛ يرون الجيش ولا يرون الحكم، ويرون الفيل ولا يرون الطير، ويرون البيت ولا يرون ربه، ويرون قدرة الهدم ولا يرون إرادة الحفظ. ومن هنا بدأ ضلالهم قبل أن يبدأ هلاكهم: لم يكن أول سقوطهم حين أصابتهم الحجارة، بل حين قرؤوا الواقع قراءة ناقصة وحذفوا من حسابهم رب العالمين.

السؤال عن الكيفية لا عن وقوع الفعل

لم تقل الآية: ألم تر ما فعل ربك بأصحاب الفيل؟ وإنما قالت: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾. والسؤال عن الكيفية يوجّه النظر إلى الطريقة المدهشة التي جرى بها الفعل؛ فالحدث في أصله معلوم، ولكن موضع العبرة ليس الهلاك وحده، بل الهيئة التي وقع بها الهلاك، والانقلاب الذي حدث في موازين المشهد، والتناقض بين الوسائل التي وثق بها المعتدون والوسائل التي أهلكهم الله بها.

لو أن جيشاً ماثلاً خرج لمقابلة أصحاب الفيل فهزمهم، لبقيت الواقعة داخل الحساب البشري المعتاد: قوةٌ غلبت قوةً، وسلاحٌ تفوق على سلاح، وخطةٌ نقضت خطة. لكن الله أراد أن تكون الكيفية نفسها آية؛ فلم يواجه الفيل بفيلٍ أعظم، ولا الجيش بجيشٍ أكثر عدداً، ولم يجعل نجاة البيت معلقةً على بطولةٍ بشرية قد ينسب الناس إليها ما حدث؛ بل أرسل طيراً تحمل حجارة، حتى ظهر الفرق بين ضخامة الأداة واستقلالها، وبين صغر الأداة حين يسخرها الله.

إن ﴿كَيْفَ﴾ تفتح باب الدهشة الواعية: كيف خرج الجيش متماسكاً ثم انتهى عصفاً مأكولاً؟ كيف ضل الكيد الذي أحكمت خطته؟ كيف صار الطير أقوى من الفيل؟ كيف تحولت السماء المفتوحة فوق رؤوسهم إلى

جهة العذاب؟ كيف انقلب أمن القوة إلى رعبٍ لا تدفعه القوة؟ وكيف صار الجيش الذي أراد أن يحوثر البيت أثراً نتلو الأجيال خبره عند البيت؟

ليست الكيفية تفصيلاً زائداً على الفعل؛ إنها لب الدلالة. فقد يهلك الطاغية ويبقى الناس أسرى هيئته، أما حين يهلك بطريقة تكشف عجزه، فإن الهلاك يهدم سلطانه في الأجساد والخيال معاً. ولهذا لم تكتفِ السورة بالقول إن الله أهلّكهم، بل كشفت كيف أضلّ كيدهم، وكيف أرسل عليهم، وكيف رماهم، وكيف جعلهم في النهاية؛ لأن القرآن يريد أن يطهر الخيلة الإنسانية من الصورة التي صنعها استعراض القوة في أول المشهد.

﴿فَعَلَ رَبُّكَ﴾: انتقال النظر من الجيش إلى الله

كان يمكن للحديث التاريخي أن يبدأ بأصحاب الفيل: خرجوا، وساروا، واقتربوا، وأرادوا، وحاصروا؛ لكن القرآن يبدأ بفعل الله: ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾. إن أصحاب الفيل حاضرون في الجملة بوصفهم واقعاً عليهم الفعل، أما الفاعل الحقيقي الذي تتجه إليه العين فهو الله. وهنا يعيد القرآن ترتيب المشهد: ما ظنه الناس فعلاً يقوم به الجيش يصبح مقدمةً لفعل الله بالجيش، ومن جاء ليفعل بالبيت ما يشاء وجد نفسه موضعاً لفعلٍ لم يكن في حسابه.

ذلك هو الانقلاب الأعظم في السورة: خرج أصحاب القيل وهم يتعاملون مع أنفسهم بوصفهم الفاعلين، ولكن الآية حولتهم إلى مفعولٍ بهم. كانوا يملكون الأوامر، ويحركون الصفوف، ويحددون الوجهة، ويتصورون أن بقية الأشياء عناصر ساكنة في مشروعاتهم؛ فإذا بهم، في اللحظة الحاسمة، يدخلون هم أنفسهم في جملة فاعليها الله: ﴿فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْقِيلِ﴾.

وما أشد حاجة الإنسان إلى هذا التصحيح حين يخيفه طغيان الفاعلين في الأرض! إن كثرة أفعالهم قد توهمه أنهم وحدهم الذين يصنعون الأحداث، وأن الشعوب مفعولٌ بها أبداً، وأن الضعفاء مادةٌ خام لمشروعات الأقوياء. لكن القرآن يفتح وراء المشهد جملةً أكبر: إن الذين يفعلون بالناس واقعون تحت فعل الله، والذين يرسمون المصائر لا يخرجون عن المصير الذي يرسمه لهم، والذين يملكون قرار الحرب لا يملكون أن يضمّنوا لأنفسهم نهايتها، والذين يضعون الآخرين داخل خططهم موضوعاً للبطش قد يصبحون هم أنفسهم موضوعاً لحكم لا يستطيعون دفعه.

إن الفعل الإلهي هنا لم يُفصل في الآية الأولى، بل جاء مطلقاً مهيأً: ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾، ثم تتولى الآيات اللاحقة كشف مراتبه. وكأن الإبهام الأول يفتح في النفس مساحةً من الرهبة قبل أن تأتي التفاصيل؛ فما

فعله الله بهم أعظم من أن يُلقى خبراً عابراً، ولذلك يستدعي القرآن القلب أولاً، ثم يعرض عليه أطوار الفعل: تضليل الكيد، وإرسال الطير، والرمي بالحجارة، والتحويل إلى عصف مأكول.

لماذا قال: ﴿رَبُّكَ﴾؟

لم يقل: ألم تر كيف فعل الله بأصحاب الفيل، مع أن اسم الجلالة هو الاسم الجامع، وإنما قال: ﴿رَبُّكَ﴾، فأضاف الرب إلى النبي صلى الله عليه وسلم، لتتحول الواقعة من خبرٍ عن قدرة الله إلى خطابٍ قربٍ وثبُتٍ ورعاية. فالذي فعل بأصحاب الفيل هو ربك؛ ربك الذي خلقك، واختارك، ورباك، وتولاك، وأنزل عليك هذا القرآن، وأخرجك في قومٍ ما زالت قصة الفيل حاضرةً في ذاكرتهم.

وفي لفظ الربوبية معنى التدبير المتدرج، والرعاية، والملك، والتصرف، والقيام على شؤون الخلق؛ فكأن السورة تقول للنبي صلى الله عليه وسلم: إنك لست متروكاً في مواجهة التكذيب والأذى، وإن الدعوة التي تحملها ليست خارجةً عن رعاية ربك، وإن البيت الذي حماه قبل بعثتك لم يكن أشد عليه

من رسالته التي بعثك بها، وإن القوى التي تقف في طريق الحق لا تستقل عن سلطان ربك، مهما بدت في أعين الناس قادرةً على المنع والإيذاء.

لكن التثبيت هنا لا يعني وعداً بأن الداعية لن يؤذى، أو أن طريق الرسالة سيخلو من الجراح؛ فقد أؤذي النبي صلى الله عليه وسلم، وحوصر، وأُخرج من مكة، واستشهد من أصحابه من استشهد، وتأخر النصر حتى اكتملت سنته. إنما معنى التثبيت أعمق من السلامة العاجلة: معناه أن الأذى كله يقع داخل الروبوية، وأن الباطل لا يملك أن يطفئ ما أراد الله له البقاء، وأن الطريق وإن طال لا يخرج عن التدبير، وأن المؤمن لا يقيس رعاية الله بانعدام الألم، بل بحضور الله في رحلة الألم كلها، وتوجيهها إلى الغاية التي يعلمها سبحانه.

وفي الإضافة ﴿رَبِّكَ﴾ حنانٌ خفي وسط مشهد الهلاك؛ فالآية مخفية لأصحاب الفيل، مطمئنة للرسول. الكلمة نفسها تحمل وعيداً لمن تمرد، وقرباً لمن آمن؛ لأن رب العالمين الذي لا يعجزه جيش هو رب محمد صلى الله عليه وسلم الذي يواجه وحده تقريباً كبرياء قريش. وإذا استقر هذا المعنى في القلب لم يعد المؤمن محتاجاً إلى أن يساوي عدوه في كل مظهر حتى يطمئن؛ إذ يكفي أن يعرف أنه عبدٌ لرب لا يعجزه ما يراه الناس عظيماً.

﴿بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾: حين يتلغى الرمز أسماء أصحابه

لم تسمَّ السورة قائد الجيش، ولم تحفظ أسماء قادته، ولم تقل: كيف فعل ربك بفلان وفلان؛ بل جمعهم تحت وصف واحد: ﴿أَصْحَابِ الْفِيلِ﴾. لقد ذابت ذواتهم وأسمائهم في الآلة التي وثقوا بها، وصار الفيل الذي أرادوه عنواناً لمهابتهم هو العنوان الذي يعرفهم التاريخ به وهم مهزومون.

وهذه من مفارقات السورة الموحية: ظنوا أن الفيل سيمنح أسماءهم الخلود، فإذا بأسمائهم تُمحي ويبقى الفيل شاهداً عليهم. أرادوه رمزاً لضخامة قوتهم، فصار رمزاً لحدود القوة؛ أرادوه مقدمة النصر، فصار اسمه عنوان الهزيمة؛ أرادوا أن يدخلوا به التاريخ من باب الهيبة، فأدخلهم القرآن به من باب العبرة.

إن الإنسان إذا جعل الأداة أكبر من قيمته ابتلغته الأداة، وإذا بنى هويته على ما يملك صار ملحقاً بما يملك. فكم من صاحب مالٍ لم يبق منه في الذكرة إلا ماله، وصاحب سلطانٍ لم يبق منه إلا وصف طغيانه، وصاحب جيشٍ ذاب اسمه في اسم سلاحه! أما الإنسان الذي يبني هويته على عبوديته

لله، فإن الأدوات تبقى في يده ولا تدخل إلى قلبه، ويستخدم القوة ولا يسمح للقوة أن تعيد تعريفه، ويملك الوسيلة ولا يصير مملوكاً لها.

وأصحاب الفيل لم يكونوا مجرد رجالٍ صحبوا حيواناً؛ إنهم أصحاب تصورٍ كامل للقوة، والفيل هو العلامة الكثيفة لذلك التصور. إنه الحجم الذي يخيف، والثقل الذي يقتحم، والمشهد الذي يسبق الجيش فيكسر معنويات خصومه. ولهذا كان إسقاط أصحاب الفيل إسقاطاً لفلسفةٍ ترى أن ضخامة الوسيلة تكفي لتقرير النتيجة، وأن الرهبة التي تملأ قلوب البشر دليلٌ على القدرة المطلقة.

لكن الله لم يهلك الفيل وحده، بل أبطل المعنى الذي حمله. جعل الطير في مواجهة الفيل، والحجارة الصغيرة في مواجهة الأجسام الضخمة، والسماء في مواجهة الزحف الأرضي؛ ليعلم الإنسان أن الحجم صفةٌ في المخلوق لا صفةٌ في القدرة، وأن أصغر الأشياء قد يحمل أكبر الأقدار، وأن الله لا يحتاج إلى وسيلةٍ تشبه عدوه حجماً كي يهزمه.

الرؤية التي تحرر الإنسان من عبادة القوة

إن أعظم ما تفعله هذه الآية في القلب أنها ترده من سطوة المنظر إلى حقيقة الأمر. فالطغيان لا يحكم الناس بالسلاح وحده، بل بالصورة التي يصنعها عن نفسه في خيالهم؛ يملأ أعينهم بضخامته حتى لا يروا سواه، ويكرر مشاهد قوته حتى تتحول القوة في نفوسهم إلى قدر، ويجعلهم يعتقدون أن مقاومته ضربٌ من الجنون، وأن زواله مستحيل؛ فإذا صدقوه قبل أن يهزمهم، اكتملت له أولى مراحل السيطرة.

وتأتي ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ لتحطم احتكار الطاغية للمشهد. نعم، انظر إلى الفيل، ولكن لا تتوقف عنده؛ انظر كيف فعل ريك بأصحابه. انظر إلى بداية الزحف، لكن ضع إلى جوارها النهاية. انظر إلى الكيد وهو يُحكم، ثم انظر إليه وهو يضل. انظر إلى الصفوف وهي تتقدم، ثم انظر إليها وهي تصير عصفاً مأكولاً. لا تسمح للحظة القوة أن تُخفي عنك حقيقة المصير.

فالمؤمن لا ينكر قوة عدوه، ولا يهون من أدواته، ولا يبني مواقفه على الوهم؛ لكنه يرفض أن يمنح هذه القوة صفة الأبدية. يراها كما هي: قدرة مخلوقة، محدودة بالزمان والمكان، معرضة للخلل، واقعة تحت سلطان الله. وهذا هو الفرق بين الواقعية والانزهام: الواقعية أن تعرف ما يملكه عدوك، والانزهام أن تنسى من يملك عدوك وما يملك.

ولا تريد الآية أن تنقل الإنسان من الافتتان بالقوة إلى التواكل، بل من عبادة السبب إلى حسن استخدامه. فأهل الإيمان مطالبون بالإعداد والعمل والصبر، لكنهم وهم يفعلون ذلك لا يعلّقون قلوبهم بالأفوال التي يملكونها، ولا يظنون أن كثرتهم تعصمهم، ولا يجعلون خططهم بديلاً عن افتقارهم إلى الله. إن السورة ليست درساً للضعفاء وحدهم، بل تحذيرٌ للأقوياء أيضاً: لا تتحولوا إلى أصحاب فيلٍ جدد، ولا تظنوا أن صحة القضية في حجم جيشها، ولا أن التفوق المادي إذن أخلاقي، ولا أن القدرة على الهدم تمنحكم حق الهدم.

من رؤية الواقعة إلى رؤية الرب

غاية الآية ليست أن نقف عند أصحاب الفيل، بل أن نعبر منهم إلى ربهم وربنا؛ فكلمنا زادت معرفتنا بهلاكهم ينبغي أن تزداد معرفتنا بقدرة الله، وكلما رأينا ضعف كيدهم ينبغي أن نرى كمال تديره، وكلما تأملنا انقلاب حالهم ينبغي أن تزداد يقيناً بأن الملك له وحده.

إن بعض الناس يقرؤون قصص الهلاك فتزداد فيهم الشماتة ولا يزداد الإيمان، وينظرون إلى مصارع الظالمين فلا يتفقدون بذور الظلم في نفوسهم. أما القراءة القرآنية فتجعل العبرة مرآةً للقارئ: إذا كان الله قد أبطل كيد

أولئك، فكيف بكيدٍ صغيرٍ أخفيه في قلبي؟ وإذا كان قد أهلك من اغتروا بقوتهم، فهل دخل الغرور إلى نفسي بما أملك من علمٍ أو مالٍ أو مكانة؟ وإذا كان الفيل لم يغني عن أصحابه، فما الأفيال التي أعلق بها وأحسب أن أماني محفوظة بها؟

لا يكتمل تدبر ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ حتى يتحول السؤال من التاريخ إلى النفس. ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل؟ أفلا ترى كيف يفعل الغرور بصاحبه؟ أفلا ترى كيف يعمي التعلق بالأسباب القلب عن مسببها؟ أفلا ترى كيف يبدأ الطغيان بفكرةٍ داخل النفس قبل أن يصير جيشاً في الأرض؟ وأفلا ترى أن الإنسان قد يحمل في داخله فيلاً صغيراً كلما ظن أن ما عنده يكفيه عن الله؟

وهكذا تفتح الآية الأولى عين القلب، وتعيد ترتيب القوى في الوعي، وتنزع عن الجيش صفة الفاعل المطلق، وتضعه تحت فعل الرب، ثم تتركها أمام السؤال التالي: ماذا فعل الله بكيدهم قبل أن يفعل بأجسادهم؟

إن أول ما أصابه الحكم الإلهي لم يكن الفيل، ولا الجيش، ولا الأجساد؛ بل المشروع الذي جمعهم، والغاية التي سيرتهم، والخطوة التي وثقوا بها:

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾.

الفصل الثالث

حِينَ يَضِلُّ الْكَيدُ عَنْ غَايَتِهِ

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾

بعد أن فتحت الآية الأولى عين القلب على الفاعل الحقيقي: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾، جاءت الآية الثانية لتبدأ كشف ذلك الفعل، ولكنها لم تبدأ بالأجساد التي هلكت، ولا بالفيل الذي عجز، ولا بالطير التي أرسلت؛ بل بدأت بالكيد: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾. كأن أول موضع وقع عليه الحكم الإلهي لم يكن أجسام المعتدين، وإنما الفكرة التي حرّكتهم، والغاية التي جمعتهم، والخطوة التي وثقوا بها، والإرادة التي أرادت أن تجعل من بيت الله ركناً.

كان يمكن أن تقول الآية: ألم يهلكهم؟ لكن الإهلاك نتيجةٌ جسدية، أما تضليل الكيد فهو هزيمة المشروع في جوهره. فقد يموت صاحب المشروع وتبقى فكرته، وقد يهزم الجيش وتتحقق بعض غاياته، وقد يسقط القائد بعد أن

ينجح في تغيير الواقع الذي قصده؛ أما أصحاب الفيل فقد خسروا أنفسهم وغيبتهم معاً، فلم يصلوا إلى البيت، ولم يهدموا منه حجراً، ولم يحولوا الناس عنه، ولم يتركوا في التاريخ أثر المنتصر، بل صار كيدهم نفسه مثلاً على الضياع، وصار الحدث الذي أرادوه إعلاناً لقوتهم إعلاناً خالداً لعجزهم.

إن الآية لا تقول إن الله واجه قوتهم بقوةٍ أعظم وحسب، بل تقول إنه أضلَّ طريق الكيد، وأفقده القدرة على الوصول إلى غايته. وهذا أعمق من مجرد كسر الجيش؛ لأن الكيد في أصله حركةٌ ذهنية قبل أن يكون حركةً عسكرية: تصوّر للهدف، وتقديرٌ للوسائل، وترتيبٌ للمراحل، واختيارٌ للوقت، وإخفاءٌ للمقصد أو تزيينٌ له، ثم انتقالٌ من الفكرة إلى التنفيذ. فجاء الحكم الإلهي شاملاً لهذه البنية كلها، فأدخلها ﴿فِي تَضَلِيلٍ﴾؛ أي في إبطالٍ وضياع وانحرافٍ عن المقصود، حتى أصبحت الخطوات التي ظن أصحابها أنها تقربهم من النصر تقودهم إلى الهلاك.

من الكيد إلى التضييل

الكيد ليس مجرد فعلٍ عابر، بل تديرٌ يراد به إيقاع الضرر والوصول إليه من طريقٍ محسوب. وفي لفظه معنى الخفاء والاحتتيال وترتيب الوسائل وراء

ظاهرٍ قد لا يكشف حقيقة المقصد. وأصحاب الفيل لم يكونوا جماعةً ثائرةً اندفعت في لحظة غضب؛ بل كانوا أصحاب مشروع، وراء مسيرهم إرادةً سياسية ودينية تريد أن تغير مركز المكان، وتقطع صلة العرب بالبيت، وتعيد توجيه الحركة والهيبة إلى وجهةٍ أخرى. فهدم الكعبة لم يكن عدواناً على حجارة نحسب، بل محاولةً لهدم الرمز الذي تتجه إليه القلوب، ونقل السيادة الروحية والاجتماعية من موضع اختاره الله إلى موضع أراداه السلطان.

ومن هنا سمّا القرآن كيداً؛ لأن الأمر لم يكن مواجهةً عسكرية صريحة بين جيشين، وإنما خطةٌ تستهدف معنىً مركزياً في حياة العرب، وتسعى إلى إعادة هندسة ولائهم من خلال هدم البيت الذي يلذ به وجدانهم. فالطغيان لا يكتفي غالباً بأن يملك الأرض؛ بل يريد أن يملك اتجاه القلب، ولا يرضيه أن يخضع الناس لسلطانه في الظاهر؛ بل يسعى إلى تبديل رموزهم، ومحو ذاكرتهم، ونقل مقدساتهم، وصناعة مركزٍ جديد تكون الهيمنة عليه جزءاً من هيمنته عليهم.

لكن ما ظنوه كيداً محكماً جعله الله ﴿فِي تَضَلُّلٍ﴾. ولم تقل الآية: ضيع كيدهم فقط، بل جاءت بصورة تجعل الكيد كأنه شيءٌ أدخل في فضاءٍ من الضلال، فأصبح محاطاً به، غارقاً فيه، لا يجد مخرجاً إلى الغاية. إنهم لم يضلوا

الطريق الجغرافي إلى مكة؛ فقد وصلوا إلى جهتها، ولكن كيدهم ضل الطريق إلى النتيجة. وقد يبلغ الإنسان المكان ولا يبلغ المقصود، ويقترّب من الهدف في ظاهر المسافة بينما يكون في حقيقة القدر أبعد ما يكون عنه.

وهذا لونٌ من الضلال أشدّ مرارةً من ضياع الطريق؛ لأن من ضل الطريق قد ينتبه فيعود، أما من ضل كيده وهو يظن أنه يتقدم، فإنه يستهلك قوته في صناعة نهايته. كل خطوةٍ يخطوها تزيده ثقةً وتقربه من الكارثة، وكل مرحلةٍ يقطعها يظنها دليلاً على نجاح الخطوة وهي في الحقيقة حلقةٌ من حلقات الفشل. وهكذا سار أصحاب الفيل: لم يكن الطريق الذي قطعوه يقربهم من هدم البيت، بل كان يجمعهم في الموضع الذي سيحل بهم فيه العقاب.

حين تحمل الخطوة أسباب هلاكها

من أعجب صور التدبير الإلهي أن يحمل الكيد في داخله أحياناً أسباب إبطاله، وأن تصبح الوسائل التي جُلبت لتحقيق الغاية جزءاً من الفضيحة التي تصيب أصحابها. لقد استصحب أصحاب الفيل تلك الآلة الضخمة لتكون برهاناً على تفوقهم، فصار الفيل هو الوصف الذي يخلّد هزيمتهم. وجمعوا الجيش ليضمنوا تنفيذ الخطوة، فكان اجتماعهم سبباً في أن ينزل بهم البلاء مجتمعين.

وقطعوا المسافات ليصلوا إلى البيت، فصار وصولهم إلى مشارفه وصولاً إلى الموعد الذي كتب الله فيه انكسارهم.

كانوا يظنون أنهم ينسجون الكيد حول البيت، بينما كان الكيد يلتف حولهم. يظنون أنهم يحاصرون موضعاً لا مدافع عنه، ولم يعلموا أنهم دخلوا هم أنفسهم في حصار القدر. يحسبون أن كثرتهم تمنع تفرقهم، ولم يدروا أن هذه الكثرة ستمنح صورة هلاكهم معناها المدهش: جيشٌ بكامل عدته يتحول في لحظاتٍ إلى عصفٍ مأكول.

إن الطاغية يرى من خطته وجهاً واحداً: الوجه الذي صنعه بعقله؛ أما الله فيرى الخطة من مبتدئها إلى منتهاها، ويعلم الثغرة التي لا يعلمها صاحبها، والساعة التي تنقلب فيها، والأداة التي تهدمها، والنتيجة التي تخرج من أحشائها على خلاف ما أراد لها. ولهذا فإن إحكام الكيد في عين صاحبه لا يعني أنه محكمٌ في حقيقة الأمر، وقد تكون الثقة المفرطة به دليلاً على أن صاحبه لم يعد يرى إلا نفسه.

وكم في التاريخ من مشروعاتٍ خرجت لتقضي على معنىٍ فإذا بها تحييه، وأرادت أن تحو ذكراً فإذا بها توسع انتشاره، وسعت إلى إخافة المؤمنين فإذا بها تكشف لهم حقيقة عدوهم، وحاولت أن تجعل الباطل قدراً فإذا بها

تستنفر في الناس إرادة المقاومة! ليس لأن كل ألم ينقلب نصراً فوراً، ولا لأن كل كيدٍ ينهار في اللحظة التي نحب، ولكن لأن الله لا يترك للكيد حق تحديد جميع نتائجه، ولأن الفعل البشري يخرج من يد صاحبه بعد وقوعه، فيدخله الله في شبكةٍ من الأقدار والآثار لا يحيط بها إلا علمه.

﴿كَيْدَهُمْ﴾: ما امتلكوه صار شاهداً عليهم

أضفت الآية الكيد إليهم: ﴿كَيْدَهُمْ﴾. إنه كيدهم الذي فكروا فيه، وأعدوه، وافتخروا بإحكامه، وأنفقوا عليه، وجمعوا له الرجال والدواب، وربطوا به آمال سلطانهم. هذه الإضافة تحمل معنى المسؤولية؛ فلا يستطيعون بعد ذلك أن يتبرؤوا من غايته أو ينسبوه إلى مجهول. لقد كان فعلاً صادراً عن إرادتهم، ولذلك وقع عليهم جزاؤه.

إن الإنسان قد يتبرأ من النتيجة حين تسوء، لكنه لا يتبرأ من النية التي صنع بها مقدماتها. وأصحاب الفيل أرادوا الاعتداء، وامتلكوا قراره، وساروا لتنفيذه؛ فلم يكن ما نزل بهم مصادفةً عمياء، بل جاء عقب كيدٍ متعمد. والسورة بهذا تقيم الصلة بين الأخلاق والمصير: ما حدث لهم لم يكن منفصلاً

عما أرادوه، وإنما كان ردًّا على عدوانهم، وإبطالًا لمشروعهم، وحمايةً لما استهدفوه.

لكن الآية، وهي تنسب الكيد إليهم، تنزع منهم القدرة على التحكم في مصيره. لهم أن يختاروا الكيد، وليس لهم أن يضمنوا وصوله؛ لهم الإرادة التي يبتدئون بها الفعل، ولكنهم لا يملكون الكون الذي يتحرك فيه الفعل؛ لهم أن يرتبوا الأسباب التي تقع تحت أيديهم، لكن ليس لهم أن يستخروا جميع الأسباب، ولا أن يعزلوا خطتهم عن تدخل ما لم يحسبوه.

وهنا يظهر حد الحرية البشرية أمام الربوبية: الإنسان مسؤول لأنه يختار، لكنه ليس ربًّا لأنه لا يحيط بنتائج اختياره. يملك أن يلقي الحجر، ولا يملك كل الدوائر التي يصنعها سقوطه؛ يملك أن يشعل الحرب، ولا يملك كيف تنتهي؛ يملك أن يبدأ الظلم، ولا يملك الذاكرة التي ستكتب خبره، ولا القلوب التي ستقلب عليه، ولا اللحظة التي يخرج فيها المظلوم من خوفه، ولا الحكم الذي ينتظره عند الله.

كان الكيد لهم من جهة الفعل والمسؤولية، لكنه صار لله من جهة الحكم والمصير. وهذه هي الحقيقة التي يغفل عنها الطغاة: يملكون الجريمة ولا يملكون خاتمتها.

الهزيمة الأولى: أن تفقد الغاية معناها

لم يقتصر تضليل كيدهم على منعهم من هدم البيت؛ بل انقلب مشروعههم إلى نقيض غايته. أرادوا إضعاف مكانة الكعبة، فزاد هلاكهم مهابتها في النفوس. أرادوا أن يثبتوا أن سلطانهم أعلى من حرمة البيت، فأثبتت نهايتهم أن سلطان الله أعلى من جيشهم. أرادوا أن يحولوا أنظار العرب إلى بناء أقاموه بإرادتهم، فتحوّلت أنظار العرب إلى البيت الذي حماه الله. أرادوا أن يسجل التاريخ أسماءهم بوصفهم أصحاب الفتح، فسجلهم القرآن بوصفهم أصحاب الفيل الذين ضاع كيدهم.

وهذه صورة التضليل في أبلغ معانيها: لم يخفق المشروع فقط، بل خدّم المعنى الذي جاء لهدمه. لقد صار العدوان حجةً على قداسة المعتدى عليه، وصار الجيش شاهداً على عجز الجيش، وصارت الرحلة التي أرادوا بها محو البيت سورةً تُتلى في الصلوات قرب البيت وفي أقطار الأرض إلى قيام الساعة.

إن الكيد حين يدخل في تضليل لا يقف عند عجزه عن تحقيق مراده، بل قد يتحول إلى قوةٍ تعمل لصالح نقيضه. وكم من باطلٍ حشد أدواته لإسكات

حقيقة، فلفت إليها أنظار من لم يكونوا يعرفونها؛ وكم من ظالم أراد بإيذاء إنسان أن يدفن أثره، فصار أذاه سبباً في خلود سيرته؛ وكم من سلطة أرادت أن تنهي فكرةً بالقوة، فكشفت للناس بخوفها منها مقدار ما في الفكرة من حياة!

لكن هذا المعنى ينبغي أن يفهم بإيمانٍ متزن، لا بتفاؤلٍ ساذج يختصر السنن. فليس كل كيدٍ يبطل أمام أعيننا سريعاً، وليس كل مظلومٍ يشاهد في حياته نهاية ظلمه، وليس كل عدوانٍ يُرد بالطريقة نفسها التي رُد بها أصحاب الفيل. قد يمتد الابتلاء، وقد يدفع الأبرياء أثماً موجعة، وقد يُمهّل الباطل حتى يظن أنه استقر. غير أن السورة تقرر الحقيقة الكبرى: مهما طال الطريق، لا يصبح الكيد رباً للنتيجة، ولا يخرج من سلطان الله، ولا يملك أن يضمن لنفسه الخلود.

التخطيط ليس هو الكيد

ولا ينبغي أن تفهم الآية ذمّاً للتخطيط أو إحكام الأسباب؛ فالإسلام لا يربي المؤمن على العشوائية، ولا يجعل سوء التدبير علامةً على التوكل. إنما المذموم هو أن تتحول الخطة إلى كيدٍ يطلب الباطل، أو إلى وثنٍ يظن صاحبه

أنه استغنى به عن الله، أو إلى أداة تمنح الغاية الفاسدة مظهرًا من النظام والإتقان.

فالفرق عظيم بين تديرٍ ينشد الخير ويتقيد بالحق، وكيدٍ يتوسل بالإحكام إلى العدوان؛ وبين مؤمنٍ يخطط وهو يعلم أن الأمر لله، وطاغيةٍ يخطط كأن الأمر انتقل إليه؛ وبين من يستخدم الأسباب في طاعة مسببها، ومن يجعل نجاح الأسباب دليلاً على أنه غير مسؤول أمام أحد.

لم يُعاقب أصحاب الفيل لأنهم نظّموا جيشهم، بل لأنهم وجّهوا التنظيم إلى العدوان، ولم يُبطل الله خطتهم لأنها محكمة، بل لأن إحكامها كان في خدمة الكيد ببيتها. فالقوة لا تُمدح لجرد أنها قوة، والخطوة لا تُحترم لجرد أنها دقيقة، والنجاح لا يصير فضيلةً لجرد أنه تحقق. إن القيمة الأخلاقية تسبق الكفاءة؛ لأن أكثر المشروعات شرًّا قد تكون شديدة التنظيم، وأكثر الجرائم فتكًا قد تقف وراءها عقولٌ بارعة.

ولهذا لا يقيس المؤمن صحة الطريق بقدر ما يحققه من نجاح عاجل؛ فقد ينجح الباطل زمنًا، وقد يتعثر الحق في مرحلة، ولا يكون نجاح الأول شهادةً له، ولا تعثر الثاني حكمًا عليه. إنما توزن الغايات بالوحي، وتوزن الوسائل بالعدل، ثم تؤخذ الأسباب بجذورها، ويترك المصير لله.

الكيد الذي يضلل صاحبه قبل أن يضلل الطريق

قبل أن يدخل كيد أصحاب الفيل في التضليل، كان قد أضلَّ أصحابه عن رؤية الحقيقة. أقنعهم بأنهم قادرون، ثم نقلهم من القدرة إلى الغرور؛ أقنعهم بأن البيت بلا جيش، ثم أوهمهم أن ما لا يحرسه البشر لا حارس له؛ أراهم ضعف أهل مكة، وحجب عنهم قوة رب مكة؛ جعلهم يظنون أن النجاح في قطع الطريق دليلٌ على نجاح نهايته.

وهكذا يفعل الكيد بصاحبه: يبدأ أداةً في يده، ثم يصير حجاباً على عينه. وكلما أحكم الإنسان خطته ازداد تعلقه بها، فإذا لم يراقب قلبه تحولت من وسيلةٍ يستخدمها إلى صورةٍ يعبدها؛ فلا يعود يرى احتمال الفشل، ولا يسمع صوت الناصح، ولا يراجع فساد الغاية، ولا يتصور أن في الوجود قوةً تستطيع أن توقفه.

والكيد يحمل في داخله عقوبةً نفسيةً قبل العقوبة الخارجية؛ فهو يفسد بصيرة صاحبه، ويجعله يرى الناس أشياء، ويرى المقدسات عوائق، ويرى الظلم ذكاءً، ويرى الخداع مهارة، ويرى بطش القوة حسماً. وحين يفسد

ميزان المعاني في القلب، يصبح الإنسان مستعداً لأن يسير إلى هلاكه وهو يحتفل بانتصاره.

كان تضليل الكيد واقعاً في نهايته، ولكنه كان حاضراً في بدايته أيضاً؛ لأن أول الضلال أن يتصور مخلوق أنه يستطيع أن يجعل إرادته نافذة في ملك الله دون حساب.

حين يكون الإبطال رحمةً بالوجود

إن إبطال كيد الظالمين ليس مجرد عقوبة لهم، بل رحمة بمن استهدفوه، وحفظاً للمعاني التي أرادوا محوها، ومنعاً للفساد من أن يستكمل مدهاه. ولو ترك كل كيد يبلغ غايته لمجرد أن أصحابه امتلكوا القوة، لتحول العالم إلى ساحةٍ تنتصر فيها القدرة المجردة، ولصار الحق تابعاً لعدد الجنود، وصارت المقدسات رهينةً لمن يملك وسائل الهدم.

لكن الله جعل في العالم موانع ظاهرة وخفية، وجعل للظلم حدوداً وإن لم يرها الظالم، وكتب للباطل آجالاً وإن جهلها الناس. وقد يقع الإبطال بأسبابٍ بشرية، وقد يقع بتصدعٍ من داخل المشروع، وقد يقع بخطأٍ صغيرٍ

يقلب الحساب، وقد يأتي من جهةٍ لم تخطر لأحد، كما جاء لأصحاب الفيل من السماء على أجنحة الطير.

وفي كل ذلك يتعلم القلب أن جنود الله ليست محصورةً فيما نعرفه من صور القوة. قد يكون الجندي رجلاً، أو ماءً، أو طيراً، أو خوفاً يقع في القلب، أو خلافاً يشق الصف، أو كلمةً توقف أمة، أو حقيقةً تظهر في الوقت الذي ظن الباطل أنه أحكم ستارها. قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾؛ لأن الإنسان يحصي ما اعتاد أن يسميه قوة، أما الله فيجعل من أي شيء في خلقه قوةً حين يأذن له بالمهمة.

ما الذي تفعله الآية في قلب المؤمن؟

تمنح هذه الآية المؤمن طمأنينةً، لكنها طمأنينةٌ مسؤولة لا مخدرة. تقول له: إن كيد عدوك ليس قدراً نهائياً، فلا تستسلم له؛ لكنها لا تقول له: اترك العمل. تقول: إن الخطة المحكمة يمكن أن تدخل في تضليل؛ لكنها لا تعفيه من إعداد خطته. تقول: لا تخف من الباطل خوفاً يقتل إرادتك؛ لكنها لا تدعوه إلى الاستهانة به. تجمع في قلبه بين الثقة بالله والوعي بالواقع، وبين الأمل والعمل، وبين معرفة سنن الأرض والإيمان برب السنن.

وهي في الوقت نفسه تحذره من كيده هو؛ فليس المؤمن محصناً بمجرد انتسابه من أن يقع في الحيلة المحرمة، أو يظلم خصمه، أو يتوسل إلى غاية يراها حسنةً بوسيلةٍ فاسدة. إن الله لم يقل: يجعل كيد غير المؤمنين دائماً في تضليل لمجرد هويتهم، وإنما عرض كيداً عدوانياً استهدف بيته. فمن حمل صفات هذا الكيد ناله من معناه بقدر ما حمل، ولو رفع شعارات الحق.

إن الحق لا يحتاج إلى أخلاق الباطل كي ينتصر، وإذا تخلى صاحبه عن الصدق والعدل والرحمة بحجة حماية الحق، فقد أدخل إلى مشروعه عنصراً من التضليل. وقد يتأخر ظهور ذلك، لكنه يبقى شقاً في البناء، وجرحاً في البركة، وسبباً في أن تنحرف الوسيلة بالغاية حتى لا يبقى من الاسم المرفوع إلا صدهاء.

بين الكيد والبيت

كان البيت ثابتاً، والكيد متحركاً؛ لكن الحركة لم تكن دليل الحياة، كما أن الثبات لم يكن علامة العجز. تحرك الجيش بكل صحبه، وبقي البيت ساكناً في موضعه، ثم انتهت الحركة إلى الفناء وبقي الثابت. وهذه مفارقةٌ جديرة بالتأمل: ليس كل ما يتحرك في التاريخ هو الذي يصنعه، وليس كل ما يصخب هو الأبقى، وليس كل ما يبدو ساكناً خالياً من القوة.

الحق قد يبدو هادئاً؛ لأنه لا يحتاج في كل لحظة إلى أن يثبت وجوده بالضجيج، والباطل كثيراً ما يرفع صوته لأنه يشعر في داخله بهشاشته. أصحاب الفيل احتاجوا إلى جيشٍ وفيلٍ ومسيرةٍ طويلةٍ ليعلنوا قدرتهم، أما البيت فلم يتحرك من موضعه. كانت قوته في نسبته إلى ربه، وكان ضعف الجيش في انفصاله عن العدل وإن بدا قوياً في عدته.

لقد ضل كيدهم؛ لأنهم أخطؤوا في تعريف البيت قبل أن يخطئوا في حساب القوة. رأوه حجارةً يمكن هدمها، ولم يروا أنه موضعٌ أراد الله له البقاء لوظيفةٍ قادمة. وهكذا يهلك كثيرٌ من المشروعات الطاغية بسبب خطأٍ أعمق من الحساب العسكري: إنها لا تفهم حقيقة ما تحاربه. تظن الإيمان شعاراً، والذاكرة حكاية، والكرامة ترفاً، والحق رأياً يمكن إسكاته؛ ثم تفاجأ بأن المعاني تسكن من الإنسان موضعاً لا تصل إليه أدوات القهر.

في تضليلٍ لا في مجرد تأخير

لم يجعل الله كيدهم في تعطيلٍ مؤقت، بحيث يعودون إليه بعد حين، وإنما جعله ﴿فِي تَضْلِيلٍ﴾؛ ضاع المقصد، وانقطع الطريق، وتحول المشروع إلى

عبرة. وهذا هو الإبطال الكامل: ألا يتأخر الباطل فحسب، بل يفقد قدرته على استعادة الغاية، وينتهي أصحابه وهم يحملون معهم سر فشلهم.

والتعبير بالتنكير في ﴿تَضْلِيلٍ﴾ يفتح المعنى على ضياعٍ عظيمٍ شامل، كأن كيدهم أُلقي في مِثْلٍ لا يهتدي منها إلى شيء. وضاعت الوسيلة، وضاع الهدف، وضاعت الهيبة، وضاع الجيش، وضاعت الرواية التي أرادوا كتابتها عن أنفسهم. ولم يبق إلا الرواية التي كتبها القرآن عنهم: قومٌ كادوا، فجعل الله كيدهم في تضليل.

وهنا يقف الإنسان أمام السؤال الذي يخلخل غروره: كم من طريقٍ أسير فيه وأنا أحسب أنني أقترُب، وقد أكون في حقيقة أمرٍي أبعد؟ كم من مشروعٍ أحكم ظاهره وفي أصل غايته فسادٌ يجعله ميأً للتضليل؟ كم من قوةٍ أجمعها لأحمي نفسي، فإذا بها تحجبني عن مراجعة نفسي؟ وكم من كيدٍ أمارسه في الخفاء ثم أتوهم أن خفاءه عن الناس يعني خفاءه عن الله؟

إن النجاة ليست في إحكام الطريق وحده، بل في صحة الوجهة؛ وليست في كثرة الوسائل، بل في طهارة الغاية؛ وليست في أن ينجح الإنسان في تنفيذ ما أراد، بل في أن يريد ما يرضي الله. فقد يبلغ المرء غايته وتكون غايته هي ضلاله، وقد يُحال بينه وبين ما يريد فتكون الحيلولة عين الرحمة.

وبعد أن حكمت الآية على الكيد بالضياع، تنتقل السورة إلى الأداة التي
نفَّذت الحكم. وهنا تبلغ المفارقة ذروتها: جيشٌ يمشي على الأرض في ثقله
وكثرته، وجندٌ يأتيه من السماء في خفته وصغره؛ فيلٌ جُلِبَ ليهدم بيتاً، وطيرٌ
أُرسلت لتهدم وهم القوة الذي حمله الفيل:

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾.

الفصل الرابع

جُنُودٌ مِنْ خَارِجِ الْحِسَابِ

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾

بعد أن كشفت الآية السابقة مصير الكيد في عالم الغاية: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾، انتقلت السورة إلى الأداة التي نفذت الحكم في عالم الواقع: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾. وهنا يبلغ المشهد درجة من المفارقة لا يستطيع الخيال البشري أن يبتكرها؛ لأن الجيش الذي جاء بما يراه الناس ذروة القوة في الأرض لم يواجهه الله بقوة من جنسه، وإنما فتح فوقه باباً لم يكن في حسابه، وأرسل عليه طيراً تحمل أمراً أعظم من أجماعها.

كان أصحاب الفيل قد أحكموا ما يقع تحت نظرهم: الطريق، والجنود، والقيادة، والعتاد، والوقت، والوجهة، وربما قدّروا ما يمكن أن يخرج إليهم من مقاومة البشر. كانوا قادرين على أن يحسبوا عدد رجال مكة، وأن يعرفوا مقدار سلاحهم، وأن يقارنوا بين جيشهم وما يمكن للعرب أن يحشدوه؛

لكن حساباتهم جميعاً ظلت أرضية. نظروا إلى الجهات من حولهم ولم ينظروا إلى الجهة التي فوقهم، وأعدوا لكل قوة يعرفونها، ولم يعدّوا لجندٍ لا يخطر لهم على بال.

وهذا هو العمى الملازم للغرور: لا يعجز صاحبه عن رؤية الأشياء، لكنه يعجز عن تصور شيء خارج ما اعتاده. يظن أن المستقبل لا يخرج عن قائمة الاحتمالات التي وضعها، وأن الخطر لا يأتي إلا من الأبواب التي يراقبها، وأن ما لم يدخله في حسابه لا وجود له. فإذا جاء أمر الله من خارج منطقته كله، سقطت الخطة لا لأن صاحبها أهمل تفصيلاً صغيراً فحسب، بل لأنه بنى تصوره على عالمٍ حذف منه رب العالمين.

﴿وَأَرْسَلَ﴾: ليست حركةً عابرةً في السماء

لم تقل الآية: وجاءتهم طير، ولا: ومَرَّتْ بهم طير، ولا: فظهرت فوقهم طير، بل قالت: ﴿وَأَرْسَلَ﴾. والإرسال فعلٌ يدل على القصد والتوجيه والمهمة. فالطير لم تكن ظاهرةً طبيعية عمياء صادف وجودها مرور الجيش، ولم تتحرك من تلقاء ذاتها لتشارك في واقعةٍ لا تعرفها؛ وإنما كانت مرسلّةً وراء حركتها أمر، ولها وجهة، وتحمل وظيفةً محددة في تنفيذ الحكم.

والفاعل في ﴿أَرْسَلَ﴾ هو ربك المذكور في أول السورة. فهو الذي جعل كيدهم في تضليل، وهو الذي أرسل عليهم الطير. لا استقلال للطير عن أمره، ولا قوة ذاتية للحجارة بعيداً عن تسخير، ولا مصادفة تحكم بناء المشهد. نتعدد الأدوات، والفاعل واحد؛ وتنوع الجهات، والتدبير واحد؛ ويتفرق الطير جماعات، والأمر الذي يجمعها واحد.

وهنا يحفظ القرآن القلب من نوعين متقابلين من الضلال: من إنكار الفعل الإلهي وِرْدَه إلى مصادفةٍ مادية صماء، ومن التعلق بالأداة حتى تُحجب وراءها قدرة مرسلها. فالطير حقيقة، والحجارة حقيقة، والهلاك حقيقة، ولكن دلالة الحقائق كلها معلقةٌ بالفعل الأول: ﴿وَأَرْسَلَ﴾. إن الله لم يُلغ الأسباب، بل خلقها وسخرها وأوصل بها حكمه، ولذلك لا يرى المؤمن تناقضاً بين السبب والقدر؛ فالسبب نفسه جزءٌ من القدر، والأداة لا تنازع الفاعل الحقيقي، وإنما تعمل بما أودعه فيها وأذن لها به.

ومن لطائف الفعل أن الإرسال يوحي بالانتقال من حال السكون إلى حال المهمة؛ فالطير في أصل خلقها مخلوقاتٌ تجوب الفضاء، تبحث عن أرزاقها، وتبني أعشاشها، وتحرك في نظام حياتها الذي أَرادَه الله، ثم إذا جاء

الأمر تحولت إلى جند. لم تتغير حقيقتها، لكن تغيرت الوظيفة التي سُخِّرَتْ لها، فأصبحت أجنحتها جزءاً من واقعةٍ ستبقى في القرآن إلى قيام الساعة.

وهذا يفتح للقلب باباً واسعاً في معرفة جنود الله؛ فالأشياء ليست محصورةً في الوظائف التي ألفناها لها. الماء الذي يحيي قد يغرق، والنار التي تحرق قد تكون برداً وسلاماً، والريح التي تحمل السحاب قد تقتلع، والعصا التي يتوكأ عليها صاحبها قد تصير آية، والطير الذي يبدو ضعيفاً في فضاء القوة قد يصبح حاملاً لحكم لا يستطيع الجيش دفعه. إننا نعرف من المخلوقات ظاهراً خصائصها، أما الله فيعلم ما أودع فيها من إمكانيات، ويصرفها كيف يشاء، ويجعل منها في اللحظة التي يريد ما لم يكن الإنسان ينتظره.

﴿عَلَيْهِمْ﴾: السَّمَاءُ الَّتِي لَمْ يَحْسِبُوا حِسَابَهَا

قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ﴾، ولم يقل: إليهم. وفي كلمة ﴿عَلَيْهِمْ﴾ تنفتح صورة السماء فوق الجيش، ويتحول العلو الذي كان مجالاً مفتوحاً لا يخشونه إلى جهةٍ يأتي منها الحكم. كانوا يراقبون الطريق أمامهم، ويحذرون ما قد يخرج من جانبي الوادي، ويحتمون بما معهم من عدة، فإذا بالخطر يظللهم من فوق، من جهةٍ لا تستطيع صفوفهم أن تبني في وجهها جداراً.

إن الجيوش البرية تصنع قوتها من قدرتها على احتلال المكان والسيطرة على مسالكه، لكن أصحاب الفيل وجدوا أنفسهم في مكانٍ فقدوا فيه ميزة السيطرة. الأرض تحت أقدامهم لم تعد كافيةً لحمايتهم، والسماء فوق رؤوسهم صارت ميدان الفعل، والفيل الثقيل الذي يمنحهم التفوق على الأرض لا يملك تجاه الطير في الفضاء شيئاً.

وفي ﴿عَلَيْهِمْ﴾ إحساسٌ بالإحاطة والاستعلاء؛ فالطير ليست بعيدةً تلوح في الأفق، بل هي فوقهم، ترصدهم وتبلغهم بالحجارة. لقد تحول الجيش الذي جاء يفرض الحصار على البيت إلى جيشٍ محاصر من السماء، وتحول الذين ظنوا أنهم يملكون المكان إلى أهدافٍ مكشوفة تحت أمر الله.

ما أضيق الأرض على الإنسان حين تغلق السماء أبواب الأمان فوقه! وما أضعف القوة حين تكتشف أن سيطرتها لم تكن إلا على مساحةٍ صغيرة من ملكٍ لا حد له! لقد امتلك أصحاب الفيل الطريق الذي يسرون فيه، لكنهم لم يملكو الهواء الذي يحيط بهم، ولا السماء التي تظلمهم، ولا أجسادهم التي يحملونها، ولا اللحظة القادمة التي ينتظرونها. كانوا يملكون من الواقع أقل مما ظنوا، لكن الغرور يضخم مساحة الملك حتى يتصور الإنسان أن ما وقع تحت يده قد خرج من يد الله.

لماذا الطير؟

تكن روعة المشهد في أن الله اختار من خلقه ما يهدم به معيار أصحاب الفيل نفسه. جاءوا بالفيل لأنه ضخّم، ثَقِيل، مَهِيْب، يَمَلَأُ العَيْن قبل أن يبدأ القتال؛ فأرسل الله عليهم طيراً تبدو في موازينهم صغيرةً خفيفةً، لا يقيم الجيش لها وزناً في الظروف المعتادة. وبهذا لم يهزم الله الجيش فقط، بل هزم فلسفته في تعريف القوة.

لو قابل الفيل حيواناً أضخم منه لبقى أصحاب النظرة المادية على منطقهم نفسه: الأكبر يهزم الكبير. ولو قابل الجيش جيشاً أكثر عدداً لبقيت العبرة في كثرة العدد. أما حين يتهاوى الجيش تحت طيرٍ أبابيل، فإن السؤال ينتقل من حجم الأداة إلى سرّ فاعليتها، ومن مقدار القوة التي تبدو عليها إلى الأمر الذي تحمله.

ليس الطير قوياً بذاته قوةً تقابل جيشاً وفيلةً في الحساب المألوف، ولكنه قوي بالمهمة التي أرسله الله فيها؛ كما أن الفيل لم يكن ضعيفاً في ذاته، لكنه صار عاجزاً حين دخل في مشروع حكم الله عليه بالتضليل. فالقضية ليست أن الصغير أقوى دائماً من الكبير، ولا أن الضعف فضيلةٌ في نفسه، وإنما القضية

أن الخلق كلهم عبيد، وأن القوة لا تستقل عن الإذن، وأن أكبر مخلوقٍ إذا خذله الله لا تنفعه ضخامته، وأصغر مخلوقٍ إذا سخّره الله لمهمته لا تمنعه ضآلته.

وهذا يحرر الإنسان من عبادة المقاييس الظاهرة دون أن يدعو إلى إنكارها. الحجم له أثر، والعدد له أثر، والسلاح له أثر، لكن هذه الآثار ليست مطلقة، ولا تملك أن تتحول إلى ضمان. إننا نستخدم المقاييس لأنها جزءٌ من العالم الذي خلقه الله، ولكننا لا نجس قدرة الله داخلها. نعرف أن الفيل أضخم من الطير، ثم نعرف أن رب الفيل والطير قادرٌ على أن يجعل الطير نهاية الفيل.

﴿طَيْرًا﴾: حين لا يكون الاسم هو المهم

جاءت كلمة ﴿طَيْرًا﴾ منكراً، ولم تحدد السورة نوع هذه الطير، ولا ألوانها، ولا أجماعها، ولا البلاد التي جاءت منها، مع أن الخيال الإنساني مولعٌ بمثل هذه التفاصيل. وقد تعددت الأخبار والأقوال في أوصافها، لكن القرآن لم يجعل الهداية متوقفةً على تحديد سلالتها؛ لأن السؤال الذي تبنيه السورة ليس: ما اسم الطير؟ بل: من أرسل الطير، وعلى من أرسلت، وما المهمة التي أدتها؟

إن انشغال القارئ بتحديد هيئة الطير قد يحجبه عن رؤية مرسلها، كما أن انشغاله بعدد الحجارة قد يبعده عن معنى الحكم. والقرآن يزن التفاصيل بقدر ما تخدم الهداية؛ فيذكر ما يبني اليقين، ويطوي ما لا تتوقف عليه العبرة. ليس النقص في النص، بل في فضول الإنسان الذي يريد أحياناً أن يعرف ما سكت عنه الوحي أكثر مما يريد أن يعمل بما نطق به.

لقد ذكر القرآن جنسها: طيراً، وذكر هيئتها في المجيء: أبابيل، وذكر ما فعلته: ترميهم، وذكر ما حملته: بحجارة من سجيل، وذكر النتيجة: فجعلهم كعصف مأكول. وهذه هي العناصر التي تصنع المعنى؛ أما التفصيل الذي لا يزيد في معرفة الله، ولا يغير حقيقة الواقعة، ولا يبني حكماً، فليس هو مركز السورة.

وفي هذا منهجٌ ينبغي أن يحكم قراءة القصص القرآني كله: تتوقف حيث توقف النص، وتتأمل فيما كشفه، ولا تملأ المساحات التي تركها بصورٍ جازمة لا دليل عليها. فالتأمل الحق يوسع دلالة المنطوق، لكنه لا يخترع غيباً جديداً، ولا يحول الروايات المحتملة إلى حقائق قرآنية، ولا يجعل لذة الحكاية مقدمةً على أمانة المعنى.

إن جمال سورة الفيل لا يحتاج إلى مبالغة أسطورية؛ ففي ألفاظها من العظمة ما يغني عن كل إضافة: جيشٌ جاء لهدم بيت الله، فحكم الله على كيده بالضياح، وأرسل عليه طيراً جماعات، ترميه بحجارة، حتى صار عصفاً مأكولاً. ليس الإيمان بحاجةٍ إلى زخرفة الحقيقة، فالحقيقة حين تكون من خبر الله أبلغ من كل خيال.

﴿أَبَابِيلَ﴾: جماعاتٌ تتابع تحت أمرٍ واحد

تأتي كلمة ﴿أَبَابِيلَ﴾ فتملأ السماء بالحركة. إنها طيرٌ في جماعاتٍ متفرقة متتابعة، يأتي بعضها إثر بعض، ومن جهاتٍ شتى، كأن السماء التي بدت خاليةً قبل لحظات قد فتحت مخازن جندها. ليست طائراً واحداً ضل طريقه، ولا سرباً عابراً لا يعرف وجهته؛ إنها جماعاتٌ يؤدي كلٌ منها نصيبه من المهمة في نظامٍ لا يتخلف.

وفي التابع معنى الإحكام؛ فما نزل بأصحاب الفيل لم يكن ضربةً عشوائيةً يمكن للجيش أن يستعيد بعدها صفوفه، بل كان إرسالاً متوالياً يحيط بهم، ويلاحق جمعهم، ويبدد قدرتهم على التماسك. كلما رفعوا أبصارهم رأوا جماعةً

تتبع جماعة، وكلما ظنوا أن الموجة انتهت جاءت التي بعدها، حتى صار الفضاء كله شاهداً على عجزهم.

وهنا تقابل السورة بين جماعتين: جماعة الجيش في الأرض، وجماعات الطير في السماء. الجيش جمعه الكيد، والطير جمعها الأمر؛ الجيش تحرك بإرادة العدوان، والطير تحركت بتنفيذ التسخير؛ الجيش كثرةٌ محكومة بالغرور، والطير كثرةٌ محكومة بالطاعة. وحين التقت الجماعتان لم تكن الغلبة للأضعف، بل للأطوع لأمر الله.

إن الوحدة الحقيقية لا تنشأ من تراص الأجساد وحده، بل من وحدة الأمر الذي يجمعها. كان أصحاب الفيل جيشاً منظماً في الظاهر، ولكنهم عند نزول البلاء تحولوا إلى أفرادٍ يبحث كل منهم عن نجاته؛ أما الطير فجاءت متفرقة الجماعات، لكنها متحدة المهمة. وهكذا قد تكون الكثرة البشرية صفّاً في الصورة وهي شتاتٌ في الحقيقة، وقد تبدو جنود الله متفرقةً وهي مجمعة على إرادةٍ واحدة.

جند الله لا يشبه جند البشر

يصنع البشر جيوشهم بالتجنيد والتدريب والتمويل والتسليح، ويحتاجون إلى سنواتٍ حتى يبنوا القوة، وإلى خطوط إمداد حتى يحافظوا عليها، وإلى قيادة واتصال حتى تبقى متماسكة. أما جند الله فكل الخلق قابلون للتسخير بأمره؛ لا يحتاج سبحانه إلى أن ينشئ قوةً من خارج ملكه، لأن ما في السماوات والأرض له، ولا يحتاج إلى إعدادٍ يسبق علمه، فالأشياء كلها مهيأة في أصل خلقها لما يريد منهن.

إن الطير لم تكن في نظر أصحاب الفيل جيشاً، والحجارة لم تكن في نظرهم سلاحاً يهدد جيشاً ضخماً؛ لأن تعريفهم للجند والسلاح كان محدوداً بما يعرفه البشر. أما في ميزان الربوبية فالجندي ليست وصفاً ثابتاً لنوع من المخلوقات، بل وظيفة يمنحها الله لما يشاء. حين يرسل الطير تصبح جنداً، وحين يأمر النار أن تكون برداً تصبح رحمة، وحين يفتح البحر لموسى يصير طريقاً، وحين يطبقه على فرعون يصير قبراً.

العنصر الواحد في هذا الكون قد تتغير وظيفته باختلاف الأمر الإلهي، لأنه ليس مستقلاً بخصائصه عن خالقه. النار تحرق بإذن الله، والماء يغرق بإذن الله، والطير تطير بما أودع الله فيها، والحجر يصيب الموضع الذي قدره الله. ولا يعني ذلك إلغاء القوانين التي نراها، بل يعني أن القوانين نفسها خلق

لله، وأن انتظامها لا يخرجها من سلطانه، وأن خالق العادة قادرٌ على أن يجري من أمره ما يشاء.

ولهذا فإن جملة ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ لا تقدم لنا معلومةً عن نوع الجند فقط، بل تعيد بناء تصورنا للكون كله. فالكون في الرؤية الإيمانية ليس كلمةً صامتةً منفصلةً عن ربها، بل ملكٌ حيٌّ بالتسخير، كل ذرةٍ فيه واقعةٌ تحت العلم والأمر، وكل مخلوقٍ فيه يمكن أن يحمل قدرًا أعظم من جمعه.

حين تأتي النجاة من الجهة غير المنتظرة

كان أهل مكة عاجزين عن صد الجيش، ولم تكن لديهم الوسائل التي توازن ما جاء به أصحاب الفيل. وفي الحساب البشري قد يكون هذا العجز خاتمة القصة، لكن السورة تكشف أن غياب الوسيلة من يد الإنسان لا يعني غيابها من ملك الله. ما لم يكن عند أهل البيت كان عند رب البيت، وما لم تستطع الأرض جاء أمره من السماء.

إن الله قد يجعل النجاة في الوسيلة التي يستبعداها الناس، وقد يفتح الباب من الجهة التي لم يطرَقوها، وقد يدفع البلاء بسببٍ لا يروونه صالحاً للدفع. وكم يضيق الإنسان على نفسه حين يحصر الفرَج في صورةٍ واحدة! يرسم الله الطريق

الذي ينبغي أن يأتي منه العون، والوقت الذي ينبغي أن يقع فيه، والأداة التي ينبغي أن تحملها، ثم إذا لم يترك الصورة ظن أن أبواب السماء قد أغلقت.

أما سورة الفيل فتعلم القلب أن يؤمن بالفرج دون أن يشترط شكله، وأن يعمل بما يستطيع دون أن يحبس قدرة الله فيما يستطيع، وأن يراقب الجهات كلها؛ لأن الذي أرسل الطير على أصحاب الفيل قادرٌ على أن يفتح في أصل المشكلة منفذاً لم يكن في الخيال.

لكن هذا الرجاء ليس مطالبةً لله بأن يكرر المعجزة لكل أحد، ولا يجوز للإنسان أن يترك ما أمر به من إعدادٍ ودفعٍ للظلم، ثم ينتظر أن تنزل الطير. إن الله الذي أرسل الطير هو الذي أمر المؤمنين بالأخذ بالأسباب، ولكل مقام سنته. والعبرة أن الأسباب المأمور بها واجبة، أما حصر النتيجة فيها فليس من التوحيد؛ نبذل ما في أيدينا، ونبقي قلوبنا معلقةً بمن في يده ما لا نملك.

لا تحتقر أداة اختارها الله

إن من أمراض القوة أنها تحتقر الصغير، وتظن أن ضعف مظهره يعني انعدام أثره. وصورة الطير أمام الفيل تهدم هذا الوهم من أساسه. كم يبلغ وزن طائرٍ أمام فيل؟ وما مقدار حجرٍ صغيرٍ أمام جيش؟ لكن السؤال نفسه

يصبح ناقصاً إذا حذفنا منه إرادة الله. ليست المعادلة طيراً في مواجهة فيل، بل أمر الله نافذاً بطيرٍ على أصحاب فيل؛ وحين تُكتب هكذا يظهر موضع القوة الحقيقي.

وقد علم الله البشر مراراً أن التحولات الكبرى قد تبدأ بأشياءٍ يحتقرونها: كلمةٌ يقولها مؤمن فتعيش بعد موته، موقفٌ صغير يكسر جدار الخوف، إنسانٌ مجهول يحمل معنىً عظيماً، دمعةٌ في خلوةٍ تغير مسار قلب، فكرةٌ صادقة تبدأ ضعيفة ثم تجد لها طريقاً في التاريخ. ليس لأن الصغير كبير بذاته، ولكن لأن قيمة الأشياء ليست في مساحتها وحدها؛ قد يضع الله في القليل بركةً لا يضعها في الكثير، ويجعل الأثر البعيد في فعلٍ لم يلتفت إليه أحد.

ولهذا لا يحق للإنسان أن يحتقر نفسه إذا كان قائماً بما أمر الله، ولا أن يحتقر غيره لصغر شأنه في أعين الناس. إننا لا نعرف الوظائف التي قد يختار الله لها عباده، ولا الكلمة التي يجعل فيها حياة قلب، ولا الموقف الذي يبني عليه تحولاً واسعاً. قد تمر الطير فوق الجيوش كل يومٍ فلا يحدث شيء، ثم تُرسل في يوم الفيل فتحمل حدثاً يخلده القرآن.

والمسألة ليست تجيداً للضعف، بل تجيداً للتسخير. فالطير لم تنتصر لأنها ضعيفة، وإنما لأنها أرسلت؛ ولم يهلك الجيش لأنه قوي، وإنما لأن قوته

وُضعت في كيدٍ أبطل الله غايته. وبذلك يستقيم الميزان: لا نفتتن بالقوة، ولا نقدّس الضعف؛ إنما ننظر إلى الحق الذي تُستخدم فيه القوة، وإلى الأمر الذي تتحرك في خدمته.

بين الفيل والطير: سقوط معيارٍ كامل

الفيل يتحرك بثقلٍ يضغط الأرض، والطير يتحرك بخفةٍ تشق الهواء. الفيل يحتاج إلى طريق، والطير يعبر الجبال والأودية. الفيل يقوده الإنسان، والطير في هذه السورة يقوده أمر الرحمن. الفيل جُلب من بعيد لينح الجيش هيبةً، والطير جاءت من حيث أراد الله لتجرد الجيش من هيئته. الفيل يمثل القوة المرئية التي يفاخر بها أصحابها، والطير تمثل القوة المسخرة التي لا يعرف الناس مقدار أثرها حتى يقع.

إن تقابل الصورتين ليس تفصيلاً جمالياً وحده، بل حجةً فكريةً كاملة. فالسورة تقول للإنسان: لا تجعل ثقل الشيء في الحس دليلاً على ثقله في القدر، ولا تجعل خفته في العين دليلاً على خفته في الفعل. قد يملأ الباطل المجال بمؤسساته وجيوشه وأصواته، حتى يبدو كالفيل الذي يجب ما وراءه،

بينما تتحرك في الجهات أسبابٌ صغيرة لا يلتفت إليها، تنمو تحت عين الله حتى يحين موعدها.

وقد يبدو الحق في لحظةٍ كطيرٍ متفرق أمام جيشٍ منظم، لكن الحق لا يستمد قيمته من مقدار ظهوره، كما أن الباطل لا يستمد خلوده من مقدار انتفاشه. إنما الشأن في موافقة أمر الله، وفي الصبر على الطريق، وفي ألا تتحول قلة الوسيلة إلى قلة يقين.

السماء ن تدخل في قراءة الأرض

لم تأتِ الطير لتعلم الإنسان تجاهل الأرض، بل تمنعه من الاعتقاد أن الأرض مغلقة على قوانين القوة البشرية. إن التاريخ ليس صناعةً بشرية محضة، والكون ليس مسرحاً تركه الله للناس ثم غاب عنه؛ بل تجري الوقائع كلها تحت علمه، ويأذن بما يشاء، ويمنع ما يشاء، ويبتلي بعض الناس ببعض، ويتدخل بقدره على الوجوه التي تقتضيها حكمته.

وقد تكون أشد لحظات الإيمان حاجةً إلى سورة الفيل هي اللحظة التي يبدو فيها الواقع مغلقاً؛ حين تكتمل للباطل أدواته، وتضعف قدرة أهل الحق، وتنقطع المسالك التي يعرفونها. عندئذٍ لا تقول السورة إن المهمة انتهت، بل

تقول إن معرفة الإنسان بالمسالك انتهت، وبين الأمرين فرقٌ هائل. قد لا ترى الطريق، ولكن الله يراه؛ وقد لا تملك الأداة، لكنها موجودةٌ في ملكه؛ وقد لا تعرف الجند، لكن جنوده لا يحصيهم سواه.

إن المؤمن يعيش في الأرض، ويبني ويخطط ويقاوم داخل قوانينها، لكن قلبه مفتوحٌ على السماء. لا بمعنى أنه ينتظر الخوارق في كل يوم، بل بمعنى أنه لا يجعل المادة إلهًا، ولا يردّ الفعل كله إلى المحسوس، ولا يسمح لاستغلاق الأسباب أن يتحول إلى يأسٍ من مسببها.

من الإرسال إلى الإصابة

لم يكن إرسال الطير استعراضًا في السماء، ولا مشهدًا لإخافة الجيش ثم تركه؛ بل كان إرسالًا يحمل مهمةً دقيقة. ولهذا لا تقف السورة طويلاً عند حركة الأجنحة، وإنما تنتقل فوراً إلى الفعل الذي جاءت الطير من أجله:

﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ﴾.

لقد ظهرت الطير، لكن السر لم يكن في ظهورها وحده؛ كان في ما تحمله، وفي دقة الرمي، وفي الحكم الذي أودعه الله في حجارةٍ صغيرة. وهنا

ينتقل المشهد من جماعاتٍ تملأُ السماءَ إلى إصابةٍ تبلغُ الأجساد، ومن الجند إلى السلاح، ومن التهديد إلى وقوع القضاء.

سيكتشف أصحاب الفيل أن السماء لم ترسل إليهم مجرد طير، بل أرسلت إليهم نهايتهم، وأن الأشياء الصغيرة التي لا يلتفت إليها الجبارة قد تحمل من أمر الله ما يحول صفوفهم المتماسكة إلى صورةٍ من التفتت لم تكن تخطر لهم ببال.

الفصل الخامس

حِجَارَةٌ صَغِيرَةٌ تَهْدِمُ وَهَمَّ الْقُوَّةِ

﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ﴾

لم يكن ظهور الطير في السماء خاتمة المشهد، بل كان بداية التنفيذ. جاءت جماعات متتابعة، لا لتدور فوق الجيش دوراناً عابراً، ولا لتصنع حوله ظلالاً مخيفة ثم تمضي، وإنما جاءت تحمل حكماً، وتؤدي مهمة دقيقة: ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ﴾.

إن السورة تتحرك بسرعة مدهشة؛ فلا مسافات زائدة بين الأمر وأثره، ولا أوصاف جانبية تحجب مركز الواقعة. أرسل الله الطير، فإذا بها ترميهم، وكأن الطاعة في عالم التسخير لا تعرف التردد الذي تعرفه إرادة الإنسان؛ فحين يأتي الأمر تمضي المخلوقات في الوظيفة التي اختارها الله لها، لا تسأل عن ضخامة الجيش، ولا تقارن حجمها بحجمه، ولا تتوقف أمام الفيل لتعيد

تقدير قدرتها. إنها لا تستمد فعلها من ثقتها بنفسها، بل من خضوعها لمن أرسلها.

وهنا تظهر المسافة بين جندٍ يتحرك بالكبرياء وجندٍ يتحرك بالتسخير. أصحاب الفيل كانوا ينظرون إلى أنفسهم، وإلى عددهم، وإلى ما معهم، ويستخرجون من مظاهر القوة مبرراً للعدوان؛ أما الطير فلم تكن لها قضية ذاتية مع الجيش، ولم تتحرك انتقاماً لنفسها، وإنما كانت أداة طائعة في تنفيذ حكم الله. ولهذا كانت خفتها أقوى من ثقلهم، وتفرقها أرسخ من اجتماعهم، وحجارتها أمضى من آلاتهم.

﴿تَرْمِيهِمْ﴾: الحدث يقع أمام العين

جاء الفعل بصيغة المضارع: ﴿تَرْمِيهِمْ﴾، بعد قوله: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ﴾؛ فكأن المشهد انتقل من الخبر الماضي إلى صورة حاضرة تتحرك أمام البصر. لم يعد القارئ يسمع أن الطير رمتهم وانتهى الأمر، بل يكاد يراها وهي ترمي، جماعةً بعد جماعة، وجرراً بعد حجر، والجيش تحتها يفقد نظامه وهيبته وقدرته على الرد.

إن المضارع يستحضر الحركة، ويمنح الواقعة دواماً في الخيلة؛ فها حدث مرةً في التاريخ يعاد أمام القلب كلما تليت الآية. تمر القرون، وتتغير الدول، ويغيب المكان عن أبصار الملايين، لكن القرآن يعيد فتح السماء فوق أصحاب الفيل: ﴿تَرْمِيهِمْ﴾. إنهم لا يزالون في مشهد الوحي تحت الرمي، لا يستطيعون الخروج من الصورة التي اختارها الله خاتمةً لاستعراضهم.

كانوا يريدون صناعة مشهدٍ يبقى في ذاكرة العرب: فيلٌ يتقدم، وجيشٌ يدخل مكة، وبيتٌ يهدم تحت القوة؛ لكن القرآن ألغى المشهد الذي أرادوه، وأبقى المشهد الذي لم يريدوه: طيرٌ فوقهم ترميهم، وصفوفهم تتداعى، وقوتهم تنفتت. إن الطاغية قد يملك صناعة صورته في زمنه، لكنه لا يملك الصورة التي يحفظه بها التاريخ، ولا العبارة التي تختصره في ذاكرة الأجيال، ولا الحكم الذي يعلّقه الله على مصيره.

وفي ﴿تَرْمِيهِمْ﴾ تحديدٌ للهدف؛ فالطير لا تلقي الحجارة في فضاء فارغ، ولا تضرب المكان على غير قصد، بل تتجه إليهم. الضمير يعيد الفعل إلى أصحابه، ويجعلهم هم موضع الإصابة بعد أن جعلوا البيت موضع الاستهداف. لقد خرجوا يحددون هدفاً لهدمه، فأصبحوا هم الهدف؛ وأرادوا أن ينزل فعلهم بحجارة الكعبة، فنزلت حجارة الله بهم.

من الفاعل إلى المفعول

تكتمل في هذه الآية عملية قلب المواقع التي بدأت منذ أول السورة. في بداية القصة كان أصحاب الفيل هم الفاعلين في ظاهر الأمر: يريدون، ويجمعون، ويسرون، ويخططون، ويهددون. أما في نظم السورة فقد جردوا تدريجياً من مركز الفعل: فعل ربك بهم، وجعل كيدهم، وأرسل عليهم، ثم صارت الطير ترميهم. تحوّل الذين أرادوا أن يفعلوا بالبيت إلى أجسادٍ يقع عليها الفعل، وصار الجيش الذي جاء ليغيّر وجهة التاريخ عاجزاً حتى عن تغيير موضعه تحت السماء.

وهذا التحول ليس نحوياً فحسب، بل هو جوهر فلسفة السورة في القوة. الإنسان يستطيع أن يكون فاعلاً في مساحةٍ محدودة، لكنه لا يملك صفة الفاعل المطلق. قد ينشئ الفعل، ثم تدور عليه آثاره؛ وقد يرسل الأذى، ثم يجد نفسه في طريقه؛ وقد يجعل غيره هدفاً، ثم يتحول هو إلى هدفٍ لقوةٍ لم يحسبها. إن الفاعلية البشرية حقيقية، ولذلك يُحاسب الإنسان عليها، لكنها محدودة، ولذلك لا يجوز أن يؤلّها.

كان أصحاب الفيل أحراراً حين اختاروا العدوان، لكنهم لم يكونوا أحراراً في إلزام الكون بنتيجته. اختاروا الكيد، ولم يختاروا له النجاح؛ قادوا الجيش، ولم يقودوا القدر؛ حملوا القوة إلى البيت، ولم يستطيعوا أن يحملوا أجسادهم من تحت الحجارة حين جاء الحكم.

وفي هذا ردٌّ عميق على الوهم الذي يجعل امتلاك القدرة مساوياً لامتلاك الحق. قد يستطيع الإنسان أن يظلم، لكن استطاعته لا تجعل الظلم مشروعاً، وقد ينجح في إيصال الأذى مرحلةً من الزمن، لكن نجاحه لا يعني أنه صار سيد النتائج. إن القدرة اختبار أخلاقي قبل أن تكون امتيازاً، ومن استخدمها لهدم ما أمر الله بحفظه لم يحوّل الباطل إلى حق، بل حوّل قوته إلى حجةٍ عليه.

﴿بِحَجَارَةٍ﴾: حين يحمل القليل أثراً عظيماً

لم تحمل الطير صخوراً تشبه الجبال، ولم تأتِ بأداةٍ تضاهي الفيل حجماً؛ وإنما حملت حجارة. واللفظ في بساطته يزيّد المشهد إدهاشاً؛ فالحجارة من أكثر الأشياء حضوراً في البيئة، ولا تحتاج في أصلها إلى صناعةٍ بشريةٍ معقدة، لكنها حين دخلت في أمر الله أدت ما عجزت الجيوش عن توقعه ودفعه.

إن أصحاب الفيل جاءوا لهدم حجارة البيت، فأهلكهم الله بالحجارة. كانوا يرون حجارة الكعبة مادة صامته يمكن أن تُقتلع وتُبعثر، فجاءتهم حجارة أخرى لتكشف أن المادة كلها ملكٌ لله، وأن الحجر الذي يريدون هدمه محفوظٌ بإرادته، والحجر الذي لم يقيموا له وزناً قد يتحول بأمره إلى حاملٍ للعقوبة.

يا لها من مفارقة تكشف ضآلة الغرور! جيشٌ يحمل مشروعاً كبيراً لهدم بيتٍ من حجارة، ثم لا يحتاج إبطاله إلا إلى طيرٍ تحمل حجارة. ما حاجتهم إلى كل ذلك الاستعراض لو كانوا يعلمون كم يكفي هلاكهم؟ وما قيمة الفيل في اللحظة التي صار فيها الحجر الصغير أقوى أثراً منه؟ وما معنى العدد إذا كانت كل كثرتهم مكشوفةً لشيءٍ لم يجعلوه ضمن الأسلحة أصلاً؟

إننا نقيس الأشياء عادةً بحجمها، لكن سورة الفيل تدعونا إلى قياسٍ آخر: بمقدار ما يحمل الشيء من أمر الله. فكم من صغيرٍ يحمل معنىً كبيراً، وكم من فعلٍ لا يلتفت إليه الناس يغيّر مسار حياة، وكم من كلمةٍ قصيرة تبني يقيناً أو تهدم غروراً، وكم من عملٍ خفيٍّ يباركه الله فيتجاوز أثره عمر صاحبه!

ليست العظمة دائماً في كثرة المادة، بل في عمق الوظيفة؛ وليست الفاعلية في ضخامة المظهر، بل في موافقة الغاية التي تُخَرِّجُ لها الشيء. والحجارة لم تكن أعظم من الجيش في ذاتها، لكنها كانت تحمل حكماً أعظم من الجيش كله.

الحجارة ليست مستقلةً بالفعل

ومع ذلك، لا يريد القرآن أن ينقل تعلق القلب من الفيل إلى الحجارة؛ فكما أن الفيل لا يملك القوة استقلالاً، لا تملك الحجارة الإصابة من ذاتها. الباء في ﴿بِحِجَارَةٍ﴾ تكشف الأداة، لكن الآيات كلها تعيد الأداة إلى الفاعل: الله أرسل الطير، والطير رمت بالحجارة، والحجارة أصابت بأمره، ثم الله هو الذي جعلهم كعصفٍ مأكول.

إن التوحيد لا يلغي الأدوات، لكنه يضعها في موضعها. يعترف بأنها تفعل، ولا يزعم أنها تفعل بعيداً عن خلق الله وإذنه؛ يستعملها، ولا يعبدها؛ ينظر إليها، ولا يتوقف عندها. فإذا نجح بسببٍ لم يقل: السبب أنقذني استقلالاً، وإذا تعطل سببٌ لم يظن أن قدرة الله تعطلت معه.

ومن دقة السورة أنها تذكر جميع حلقات التنفيذ من غير أن تسمح لأي حلقة بأن تستقل عن الربوبية: ربك فعل، وجعل، وأرسل؛ والطير ترمي؛ والحجارة تحمل أثر الحكم؛ ثم يعود الختام إلى الفاعل الأعلى: ﴿فَجَعَلَهُمْ﴾. هكذا تتحرك المخلوقات داخل الجملة القرآنية كما تتحرك داخل ملك الله: لها وظائف حقيقية، لكنها لا تخرج عن إرادته.

﴿مِنْ سَجِيلٍ﴾: مادةٌ أرضية تحمل حكم السماء

السَّجِيل هو الطين المتحجر المتصلب، أو الحجر المتكوّن من طينٍ اشتد وتماسك. والمهم في دلالة الآية أن الطير لم تحمل وهماً ولا صورةً رمزية، بل حملت حجارة ذات مادة، وقع بها الرمي ونزل بها العذاب. لقد جاء الأمر من السماء، ولكن الأداة من مادةٍ يعرفها أهل الأرض؛ فالتقى العلوي بالأرضي في تنفيذ قضاء الله.

وفي هذا اللقاء معنى لطيف: ليس الغيب منفصلاً عن عالم المادة، ولا قدرة الله محتاجةً إلى إلغاء العالم كي تظهر؛ فقد يستخدم سبحانه شيئاً من المادة نفسها ليكشف أن المادة لا تستقل عنه. الطين الذي يطؤه الناس بأقدامهم يمكن أن يتصلب حجراً، والحجر يمكن أن تحمله الطير، والطير يمكن أن تكون جنداً، والجند يمكن أن يقلب ميزان جيشٍ كامل. سلسلةٌ من المخلوقات المألوفة تصنع نتيجةً لم تكن مألوفة؛ لأن التدبير الذي جمعها ليس محدوداً بأفق البشر.

إن الطاغية يفتش عن القوة في المادة، لكنه لا يفهم أن المادة التي يتكئ عليها ليست ملكه. الحديد الذي يصنع منه سلاحه خلق الله، والعقل الذي

يخطط به خلق الله، والجسد الذي يتحرك به خلق الله، والأرض التي يقف عليها خلق الله؛ فكيف يتوهم أنه يستخدم ملك الله ليخرج من ملكه؟ وكيف يغيب عنه أن المادة التي سخر منها بعض أدوات عدوانه يمكن أن تسخر ضده؟

أصحاب الفيل جاؤوا بقوة أرضية ثقيلة، فحمل الهواء فوقهم طيراً، وحملت الطير حجارةً من طين، فاجتمعت عناصر الخلق في خدمة الحكم: السماء مسرح الإرسال، والهواء طريق الطير، والطير حامل الأداة، والحجارة وسيلة الإصابة، والأجساد موضع العقوبة. ليس في المشهد عنصرٌ خارجٌ عن الملك، ولا حركةٌ غائبةٌ عن العلم.

بين الحقيقة القرآنية والخيال المتكلف

وقفت السورة عند قولها: ﴿مِحْجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ﴾، وهذه العبارة كافية في بيان الوسيلة التي اختارها الله. وليس من أمانة التدبر أن تُفَرِّغَ الحِجَارَةَ من حقيقتها لتصبح رمزاً لا يدل عليه النص، كما ليس من الأمانة أن تُحَاطَ بتفاصيل جازمة لم يثبت بها القرآن ولا يتوقف عليها معناه.

إن بعض القراءات الحديثة تحاول أحياناً أن تعيد تأويل كل خارقٍ حتى تحشره في تفسيرٍ مادي مألوف، كأن الإيمان بقدرة الله يحتاج إلى اعتذارٍ

أمام التصورات البشرية. وبعض القراءات الوعظية تفعل العكس، فتضيف إلى الحدث عجائب وتفاصيل لا حاجة إليها، كأن خبر الله لا يبلغ غاية التأثير إلا إذا زاده الخيال.

أما الطريق الآمن فهو أن نقف مع النص: طيرُ أرسلها الله جماعات، ترمي الجيش بحجارةٍ من سجيل، فجعلهم الله كعصفٍ مأكول. ثبت ما أثبتته، ونكل ما لم يفصله إلى علم الله، ثم نتأمل الدلالات التي تحملها ألفاظه من غير أن نبدل طبيعة الواقعة أو نختزع لها غيباً جديداً.

إن القرآن غنيٌّ بعظمته الذاتية؛ فلا يحتاج إلى أن نحميه من ظاهره، ولا أن نزيّنه بما ليس فيه. والمشهد كما عرضه بالغٌ من الإعجاز والتأثير غايته: أداةٌ صغيرة تحمل أمراً إلهياً، فتغلب جيشاً جاء في أقصى صور الثقة المادية.

دقة الرمي ودقة الجزاء

في لفظ الرمي معنى توجيه الشيء إلى هدف، وليس مجرد إسقاطه. فالطير ﴿تَرْمِيهِمْ﴾، وكأن كل حركة في المشهد محسوبةٌ داخل العلم الإلهي: الجيش الذي تحرك نحو هدفٍ محرّم صار هدفاً، والأيدي التي لم تكن تملك دفع

الحجارة عجزت عن حماية أصحابها، والمسافات بين الطير والرجال لم تمنع وصول الحكم.

لقد قام مشروع أصحاب الفيل على دقة الحساب: تحديد البيت، والوصول إليه، وهدمه. فجاءهم جزاءٌ دقيقٌ في الاتجاه نفسه؛ من جعل بيت الله هدفاً للعدوان جعله الله هدفاً للعقوبة. ليست الواقعة انفجاراً أعمى، بل عدلٌ يتجه إلى أصحابه، ولذلك تكرر الضمير في الآيات: كيدهم، عليهم، ترميهم، فجعلهم. لا يضع المعتدون داخل الزحام، ولا تختلط مسؤوليتهم بالبيت الذي أرادوا هدمه؛ فالحكم يعرف طريقه إليهم.

والعدل الإلهي لا يحتاج إلى قوةٍ عمياء تحتاج كل شيء، بل يصيب من شاء الله بما شاء. بقي البيت، وهلك الجيش؛ بقي الموضع الذي استهدفوه، وسقط الذين استهدفوه. وبين البقاء والسقوط انكشفت حدود القوة البشرية: يستطيع المعتدي أن يحدد هدفه، لكنه لا يضمن أن يصل إليه؛ أما أمر الله فإذا جاء لم تضله الكثرة، ولم تحجبه الدروع، ولم يمنعه الفيل.

ليس المقصود صناعة لذة الانتقام

وعندما يتدبر المؤمن مشهد الحجارة، لا ينبغي أن يتحول قلبه إلى قلبٍ متعطش للعذاب، أو أن يقرأ هلاك القوم بوصفه مادةً للشماتة المجردة؛ فالقرآن لا يربي الإنسان على القسوة، وإنما يعلمه عدل الله، وخطورة العدوان، وعاقبة الغرور. أصحاب الفيل لم يهلكوا لأن المؤمن يريد مشهد هلاكٍ يتلذذ به، بل لأنهم جاءوا معتدين، يقودون جيشاً لهدم البيت الحرام، فكان ما نزل بهم حمايةً للبيت وإبطالاً للكيد.

والفرق عظيم بين الفرح بانتصار الحق والفرح بالألم لذاته. الأول يتصل بالعدل ونجاة المعتدى عليه، والثاني قد يكون مرضاً في النفس. إن المؤمن لا يطلب الفتنة، ولا يتمنى العذاب للناس بلا حق، لكنه إذا رأى الطغيان يندفع لهدم المقدسات لم يساو بين المعتدي والمعتدى عليه، ولم يسمّ دفع الظلم قسوة، ولم يحوّل الرحمة إلى حيادٍ أخلاقي يترك الفيل يهدم البيت.

إن الرحمة التي لا تحمي الضعيف من المعتدي ليست رحمةً كاملة، والعدل الذي لا يوقف الكيد ليس عدلاً. وقد كان في رمي أصحاب الفيل رحمةً بالبيت، وأماناً لأهل مكة، وحفظٌ لموضع العبادة، وإفشالٌ لمشروع لو نجح لفتح الباب أمام القوة لتعيد تشكيل المقدسات بحسب سلطانها.

ما من درع يحمي من الداخل

جاءتهم الحجارة من خارج صفوفهم، لكن انهيارهم كشف ضعفًا كان في داخل تصورهم منذ البداية. لم تكن مشكلتهم أنهم لم يملكوا سلاحًا مضادًا للطير فقط، بل أنهم دخلوا المعركة بقلوبٍ لا ترى إلا ما تملك. ولو عرفوا حدودهم ما قصدوا البيت، ولو عرفوا رب البيت ما اغتروا بالفيل، ولو فهموا أن القدرة لا تمنح الحق ما جعلوا تنظيمهم أداةً للعدوان.

إن أقصى حجارة العقوبة هي تلك التي تكشف للإنسان أن البناء الذي عاش داخله كان وهمًا. كان الجيش يظن أن عدده درع، فإذا بالعدد لا يمنع الإصابة؛ ويظن أن الفيل حصن، فإذا به عاجزٌ عن حماية نفسه؛ ويظن أن القيادة تعرف الطريق، فإذا بالطريق كله يقود إلى تضليل. تحطمت الأجساد، لكن الذي تحطم قبلها هو التصور الذي بنوا عليه جرأتهم.

وكل إنسان يحمل في نفسه دروعًا وهمية: مألًا يظنه مانعًا من الحاجة، ومكانةً يظنها مانعةً من السقوط، وصحةً يظنها عهدًا بطول البقاء، وعقلًا يظنه قادرًا على توقع كل طارئ. وتأتي سورة الفيل لا لتدعوه إلى نبذ هذه النعم، بل إلى ألا يجعلها عهود أمانٍ مستقلة عن الله. ما دام الشيء نعمةً تشكرها بقي

في موضعه، فإذا تحول إلى مصدر استغناءً وغرور صار فيلاً يقوده القلب إلى موضع الخطر.

المجارة التي تعيد الأشياء إلى أجمامها

كان أصحاب الفيل أكبر في أعين الناس مما هم عليه في الحقيقة. ضخمتهم الهيبة، والمسافة التي قطعوها، والفيل الذي صاحبهم، وعجز أهل مكة عن مواجهتهم. ثم جاءت المجارة الصغيرة لتعيدهم إلى حجمهم الحقيقي: بشراً ضعفاء، لا تملك أجسادهم أن تمنع عنها ما قدره الله.

وهذه من وظائف العقوبة في القرآن: كشف الحقيقة التي أخفاها الغرور. فالطاغية لا يتحول عند هلاكه من إلهٍ إلى إنسان؛ بل ينكشف أنه كان إنساناً طوال الوقت. لم تكن له صفة الألوهية ثم سلبت، وإنما صنع الخوف حوله وهماً، وصدقه الناس أو صدقه هو، حتى جاءت لحظةٌ بددت الصورة.

المجارة لم تسلب أصحاب الفيل قوةً مطلقة؛ فقد كانوا فاقدين لها من البداية، لكنها كشفت فقدهم. لم تجعلهم محتاجين؛ كانوا محتاجين وهم يسرون، محتاجين إلى الهواء والماء وثبات الأرض وسلامة الأجساد، لكنها

نزعت عن حاجتهم ستار الغرور. ولم تدخلهم في ملك الله ساعة الإصابة؛ كانوا في ملكه منذ أول خطوة، لكنها أظهرت ما أنكروه.

وهكذا تأتي بعض الأقدار لا لتخلق ضعف الإنسان، بل لتكشفه له. المرض لا يبدأ احتياج الجسد إلى الله، لكنه يفضحه، والفقد لا يبدأ فقر القلب، لكنه يزيح عنه الوهم، والسقوط لا يبدأ محدودية السلطان، لكنه يجعلها مرئية. وما لم يعرف الإنسان ضعفه بالعبودية عرّفته به الأقدار على وجهٍ قد يكون أشدَّ إيلاًماً.

من صلابة السجيل إلى هشاشة العصف

في هذه الآية مادةٌ صلبة: ﴿حَجَّارَةٌ مِنْ سِجِّيلٍ﴾، وفي الآية التالية صورةٌ شديدة الهشاشة: ﴿كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾. وبين الصلابة والهشاشة يكتمل التحول. الجيش الذي جاء متماسكاً كأنه لا ينكسر تلقى المجارة، فتحول إلى فتات؛ والطير الخفيفة حملت المادة الصلبة، فهشمت القوة التي ظنت نفسها أصلب من كل شيء.

إن النظم القرآني ينقلنا من فعل الرمي إلى أثره من غير إطالة؛ لأن ما بينهما واقعٌ تحت قدرةٍ لا تحتاج إلى زمنٍ طويل حتى تنفذ. لا معركة متكافئة

هنا، ولا تبادل ضربات، ولا فرصة للجيش كي يعيد ترتيب صفوفه؛ لقد جاء الحكم، فانتقل المشهد من ﴿تَرْمِيهِمْ﴾ إلى ﴿فَجَعَلَهُمْ﴾.

ولفظ ﴿جَعَلَهُمْ﴾ هو نفسه الذي ظهر في إبطال الكيد: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾. جعل أصاب الخطة أولاً، وجعل أصاب أصحابها أخيراً. ضاع المشروع، ثم تفتت حملته؛ بطل المعنى الفاسد، ثم انهارت القوة التي قامت لخدمته. وهكذا لا تترك السورة من مشهد البداية شيئاً قائماً إلا البيت الذي أرادوا هدمه.

وسنقف في الفصل الآتي أمام الصورة الأخيرة، تلك الصورة التي اختارها القرآن لتكون قبراً بلاغياً لهيبة الجيش كلها:

﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾.

هناك لا يعود الحديث عن فيلٍ ولا جنودٍ ولا قادة؛ كل الأسماء والرتب والأحجام تذوب، ولا يبقى إلا عصفٌ أكلته الدواب، فتمزق وتفتت، وذهبت الريح بما بقي منه.

الفصل السادس

مَنْ هَيْبَةِ الْفِيلِ إِلَى هَشَاشَةِ الْعَصْفِ

﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾

تصل السورة في آيتها الأخيرة إلى الخاتمة التي كانت تختئ وراء كل ضجيج البداية. لا تذكر مطاردةً طويلة، ولا تصف محاولة الجيش للهرب، ولا تسرد ما قاله قاداته حين انقلب المشهد عليهم؛ بل تطوي ذلك كله في صورة واحدة، قصيرة كالحكم، حاسمة كالنهاية: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾.

إنها ليست عبارةً تخبر عن موتهم فقط، وإنما صورةٌ تهدم في الخيال كل ما بنوه من مهابة. فالجيش الذي دخل القصة مصحوباً بالفيل، ممتلئاً بالعدد والعدة، خارجاً في هيئة قوة لا يوقفها شيء، يخرج من السورة عصفاً مأكولاً؛ بقايا زرع أكل وتفتت، وفقد تماسكه ونضارته، وأصبح خفيفاً متناثراً لا يحتفظ من هيئته الأولى إلا بأثر ذابل.

بين أصحاب الفيل والعصف المأكول تقع القصة كلها. في أول السورة عنوانٌ يوحي بالثقل والضخامة، وفي آخرها صورةٌ تبلغ غاية الخلفة والتفتت. في البداية جيشٌ تتحرك الأرض تحت أقدامه، وفي النهاية بقايا لا تثبت أمام الريح. في البداية قوةٌ جاءت لتغيّر معالم المكان، وفي النهاية مادةٌ فقدت حتى قدرتها على الاحتفاظ بشكلها. لم يهزموا فحسب؛ بل انقلبت صورتهم إلى نقيض ما أرادوه لأنفسهم.

الفاء التي تُسقط المسافة

افتتحت الآية بالفاء: ﴿فَجَعَلَهُمْ﴾؛ فاءٌ تصل الرمي بالنتيجة، وتوحي بسرعة الانتقال من الإصابة إلى الانهيار. أرسلت الطير، ورمتهم بالحجارة، فجعلهم الله كعصفٍ مأكول. لا تبدو بين الفعل والنتيجة مساحةٌ يستعيد فيها الجيش توازنه، ولا زمنٌ يسمح له بأن يجمع صفوفه، ولا معركةٌ تتردد فيها الكفة بين قوتين متقاربتين؛ لأن المواجهة لم تكن بين جيشٍ وطير في أصلها، وإنما بين كيدٍ بشري محدود وحكمٍ إلهي نافذ.

كان أصحاب الفيل قد قطعوا مسافةً طويلةً في إعداد مشروعهم وتنفيذه؛ جمعوا الجنود، وهبؤوا الوسائل، وساروا عبر الأرض، واقتربوا من مكة. احتاج

الكيد إلى زمنٍ طويلٍ ليكتمل، ولكن إبطاله لم يحتاج إلا إلى أن يأتي الأمر. وهذه من مفارقات القدرة: قد يقضي الإنسان عمراً في بناء الوهم، ثم تكفي لحظةً من انكشاف الحقيقة كي ينهار كله؛ وقد تجمع الإمبراطورية أسباب قوتها في عشرات السنين، ثم يدخل اللحل في موضع واحد فتساقط أركانها على نحوٍ لم يتوقعه أحد.

ليست سرعة السقوط دائماً دليلاً على أن البناء لم يكن ضخماً، بل قد تكون دليلاً على أن ضخامته كانت تخفي هشاشةً داخلية. كان جيش الفيل هائلاً في أعين الناس، لكنه كان قائماً على وهم الاستقلال بالقوة؛ فلما اصطدم الحكم بالوهم لم يحتاج إلى مناقشته طويلاً. جاءت الحقيقة، فتداعى ما بُني على إنكارها.

﴿فَجَعَلَهُمْ﴾: الفاعل الذي بدأ به المشهد يختمه

تعود السورة في الخاتمة إلى الفعل الإلهي المباشر: ﴿فَجَعَلَهُمْ﴾. فالطير رمت، والحجارة أصابت، لكن الله هو الذي جعل. وهكذا يُغلق النظم الدائرة التي فتحها في الآية الأولى: ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾، ثم كشف صور الفعل: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ﴾، ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ﴾، ﴿تَرْمِيهِمْ﴾، وأخيراً ﴿فَجَعَلَهُمْ﴾.

إنها حركةٌ متكاملة من إبطال المعنى إلى تحطيم البنية التي تحمله. جعل كيدهم في تضليل، ثم جعلهم هم أنفسهم كعصفٍ مأكول. ضل المشروع أولاً، ثم انهار أصحابه؛ فالهزيمة الفكرية سبقت الهزيمة الجسدية، وضياع الغاية سبق ضياع القوة التي خرجت لتحقيقها.

كانوا يريدون أن يجعلوا البيت ركناً، فجعلهم الله هم العصف المأكول. كانوا يريدون إعادة تشكيل المكان بحسب سلطانهم، فأعاد الله تشكيل صورتهم في التاريخ بحسب حكمه. وفي هذا التقابل تظهر حدود الإرادة البشرية: يستطيع الإنسان أن يريد، وأن يباشر الفعل، وأن يملك بعض أدوات التغيير؛ لكنه لا يملك أن يجعل ما يشاء حقيقةً نهائيةً في ملك الله.

وتكرر فعل الجعل في السورة يحمل معنى التحويل من حالٍ إلى حال. الكيد الذي بدا مستقيم الطريق جُعل في تضليل، والجيش الذي بدا متمسكاً جُعل عصفاً مأكولاً. إن الله لم يمنعهم من الوصول فحسب، بل نقل وجودهم كله من صورة المهابة إلى صورة الهوان، حتى أصبحت نهايتهم تفسيراً للحقيقة بدايتهم: كانوا هشّين منذ أول الطريق، ولكن ضخامة المظهر أخفت هشاشتهم، فجاء الحكم ليجعل الباطن ظاهراً.

﴿كَعَصِفٍ﴾: صورةٌ من الحقل تهدم صورة الحرب

العصف هو ورق الزرع أو ما يبس ويتفتت من سوقه وقشوره. وقد اختار القرآن صورةً من مشهدٍ زراعي بسيط ليصف نهاية مشهدٍ عسكري ضخم. لا سيوف في الصورة الأخيرة، ولا فيلة، ولا دروع، ولا قادة؛ بل حقلٌ مر عليه الأكل، وبقيت منه أجزاءٌ ممزقة فقدت حياتها وتماسكها.

وهذا الانتقال من معجم الحرب إلى معجم الحقل شديد الدلالة؛ فكأن القرآن يخرج الجيش من اللغة التي أراد أن يخلد بها نفسه، ويسلبه أسماء الرتب والسلاح والسلطان، ثم يعيده إلى مادةٍ هشة من مواد الأرض. لم يعد أولئك في الآية الأخيرة جنوداً يثيرون الخوف، بل صاروا شيئاً يشبه بقايا النبات بعد أن فقد قوته وغذائه وشكله.

إن التشبيه لا يصف الموت وحده، بل يصف ما بعد انكسار البنية. فقد يموت الإنسان ويبقى جسده محتفظاً بهيئته، أما العصف المأكول فصوره للفتت، والتمزق، وذهاب النضارة، وانعدام القدرة على الاجتماع من جديد. لقد جاء الجيش صفوفاً، وانتهى أجزاءً؛ جاء ككلمةٍ واحدة يقودها مقصد،

وانتهى بقايا لا يجمع بينها نظام؛ جاء يريد تفكيك حجارة البيت، فتفككت أجساد أصحابه وبنيتهم هم.

ويحمل العصف معنى الخفة بعد الثقل. ما أخف بقايا الزرع اليابس حين تعث بها الريح، وما أثقل الفيل حين يضرب الأرض بخطوه! وبين أقصى الثقل وأقصى الخفة يمد القرآن قوس الحكاية. لم ينقص حجم القوة قليلاً، بل انقلبت إلى ضدها؛ ولم تتراجع مهابة الجيش درجةً، بل سُحقت الصورة التي قامت عليها المهابة كلها.

لقد كان الناس إذا ذكروا الجيش قبل الواقعة رأوا في مخيلتهم الفيل، أما بعد القرآن فإنهم إذا ذكروا أصحاب الفيل رأوا العصف المأكول. غلبت صورة النهاية صورة البداية، وصار التشبيه الأخير أقوى من كل استعراضٍ سبق الهلاك.

﴿مَأْكُولٍ﴾: لم يبقَ إلا ما لا يلتفت إليه

لم تقل الآية: كعصفٍ يابس، ولا كعصفٍ متساقط، بل قالت: ﴿مَأْكُولٍ﴾. فالعصف لم ييبس وحده مع مرور الزمن، وإنما مر به فعلٌ أزال

تماسكه وتركه بقايا ممزقة. وفي اللفظ إيحاءً بأن الصورة قد بلغت نهايتها؛ فالزرع كان قائماً، ثم أُكل، ولم يبق منه إلا ما لا يُنتفع به ولا يلتفت إليه.

وهذه الكلمة شديدة القسوة على الغرور؛ لأن أصحاب الفيل أرادوا أن يكونوا هم الآكلين للبلاد والرموز، فإذا بهم يتحولون في صورة السورة إلى شيءٍ مأكول. جاءوا ليستحذوا، فانتهاوا مستهلكين؛ وجاءوا ليمحوا أثر غيرهم، فُحى تماسكهم؛ وجاءوا ليثبتوا أن القوة تمنحهم الحق في التصرف، فصار مصيرهم دليلاً على أن القوة إذا فقدت الحق قد تفقد نفسها.

والصيغة لا تذكر من أكل العصف؛ لأن المقصود ليس مشهد الأكل، بل حالة البقايا بعده. لقد انتهى الفعل، وظهرت النتيجة، وأصبح الجيش في حالٍ لا تستدعي تفصيلاً بعده. فكما لم تهتم السورة بأسماء القادة، لا تهتم هنا بوصف مراحل انهيارهم؛ يكفي أن تراهم في الصورة الأخيرة لتعلم أن كل شيء قد قُضي.

حين تسقط الأسماء والرتب

في بداية المسير كان لكل رجلٍ في الجيش اسمٌ ورتبةٌ وموقع، وكان هناك قائدٌ يأمر، وجنديٌّ يطيع، وسائسٌ يقود الفيل، وصفوفٌ تتوزع بحسب

المهام. أما عند قوله: ﴿فَجَعَلَهُمْ﴾ فقد ذابت الفروق كلها في ضمير واحد، ثم ذاب الضمير في صورة العصف.

إن الموت يكشف المساواة التي أخفاها ترتيب القوة. القائد والجندي، والغني والفقير، والآمر والمأمور، يحمل كلُّ منهم جسداً من تراب، ويحتاج كلُّ منهم إلى الهواء والماء، ولا يملك أحدٌ منهم أن يرد عن نفسه قدر الله. قد تصنع المؤسسات مراتب واسعة بين البشر، لكن هذه المراتب لا تغير حقيقة العبودية، ولا تمنح صاحبها جسداً خارج قانون الضعف والفناء.

وقد يحمل أصحاب السلطة ألقاباً تجعلهم في أعين الناس أكبر من الإنسان، حتى يبدو الاقتراب منهم مستحيلاً، ومساءلتهم ضرباً من الخيال؛ ثم تأتي لحظة السقوط فتتزع الألقاب كلها، ويعود الاسم إلى حجمه، ويكتشف الناس أنهم كانوا يخافون بشراً ضخمته الأجهزة والصور والحراسات. لا تصنع الرتبة ذاتاً جديدة، ولا يخلق التاج رأساً لا يموت، ولا يمنح الجيش صاحبه حصانة من حكم الله.

ولذلك لم يحتج القرآن إلى تسمية أفراد أصحاب القيل؛ لأن العبرة ليست في شخص واحد، بل في النموذج الذي صنعوه. لقد دخلوا التاريخ بوصفهم

جماعةً أحاطت بها قوةٌ كاذبة، وخرجوا منه صورةً لكل مشروعٍ يظن أن امتلاك الوسائل يرفعه فوق المحاسبة.

البيت الذي بقي والجيش الذي تفتت

في خاتمة السورة مفارقةٌ صامتة لا تصرح بها الألفاظ، لكنها حاضرةٌ في قلب المشاهد: بقي البيت، وصار الجيش عصفاً مأكولاً. لم تصف الآية بقاء الكعبة؛ لأن بقاءها صار معلوماً من هلاك من أرادها، ولأن السورة لا تحتاج إلى أن تقول: لحفظ الله البيت؛ فقد قالت ذلك بالفعل كله.

جاء الجيش ليهدم الثابت، فتحول هو إلى المتناثر. أراد إزالة البناء، فأزيل تماسكه. قصد حجراً قائماً في موضعه، فصارت أجساده كالقش المتفرق. لقد بقي ما ظنوه ضعيفاً، وذهب ما ظنوه خالداً؛ لأن البقاء لا تحدده الصلابة المادية وحدها، بل الغاية التي أرادها الله للشيء.

وليس معنى هذا أن كل بناءٍ مقدس لا يمسه أذى، أو أن الله لا يبتلي المؤمنين في مساجدهم وأوطانهم، فقد جرت في التاريخ ابتلاءات عظيمة، وتعرضت المقدسات للعدوان، وقُتل الصالحون، وخربت مواطن العبادة. إن

حماية البيت في عام الفيل واقعةٌ مخصوصةٌ بحكمة الله، لا قانوناً يفرض عليه سبحانه أن يدفع كل أذى بالطريقة نفسها.

لكن الدلالة الباقية أن المعتدي لا يملك المعنى الذي يستهدفه، ولو امتلك القدرة على إيذاء صورته المادية. قد تهدم قوةً جداراً ولا تهدم عقيدةً، وتحرق كُتُباً ولا تطفئ حقيقةً، وتقتل حامل الرسالة ولا تقتل الرسالة، وتحتل أرضاً ولا تضمن امتلاك ذاكرة أهلها وقلوبهم. أما أصحاب الفيل فقد حيل بينهم حتى وبين الصورة المادية للبيت، لبقى هلاكهم آيةً خالصةً على أن الإرادة البشرية لا تنفذ لمجرد امتلاكها القوة.

الإهانة التي تناسب الغرور

لم تكن نهاية أصحاب الفيل مجرد خسارةٍ عسكرية؛ كانت إهانةً للصورة التي صنعوها عن أنفسهم. والجزاء هنا متناسبٌ مع طبيعة الجريمة: من امتلأ بالكبر لم يكفه أن يُمنع، بل كُشفت له حقيقة ضعفه؛ ومن جاء يستعرض الهيبة لم يخرج مهزوماً فقط، بل خرج فاقداً للهيبة؛ ومن أراد أن يجعل مقدساً عظيماً مادةً لسلطانه جعل هو مادةً للعبرة.

إن الغرور يعيش على الصورة، ولذلك يكون من تمام جزائه تحطيم الصورة. الطاغية لا يؤلمه فقد القدرة وحده، بل يؤلمه أن يراه الناس بلا الهالة التي صنعها؛ لأنه لم يكن يحكم بالقوة المادية فقط، بل بالخيال الذي أقنع به الآخرين أن قوته لا تزول. فجاءت خاتمة السورة لا تقول إن الجيش مات فحسب، بل لتنع الخيلة من الاحتفاظ بشيء من هيئته القديمة.

ومع ذلك، ليست الإهانة هنا دعوة للبشر إلى امتهان خصومهم أو تجاوز العدل معهم؛ فهي حكم الله في قوم اعتدوا على بيته، وليست رخصة للإنسان أن يجعل الانتقام الشخصي عدلاً إلهياً. إن المؤمن يتلقى الصورة خشوعاً وتحذيراً، لا تكبراً على الهالكين؛ لأنه يعرف أن بذرة الغرور التي أهلكتهم يمكن أن تنبت في أي قلب غفل عن ربه.

إن العبرة لا تكتمل إذا قلنا: ما أضعفهم، ثم نسينا ضعفنا؛ بل تكتمل حين نقول: ما أضعف الإنسان إذا انفصل عن الله، وما أسرع ما تتحول نعمته إلى حجة عليه إذا جعلها طريقاً للعدوان.

من العصف الخارجي إلى العصف الداخلي

قد لا يقود الإنسان فيلاً، ولا يجمع جيشاً، لكنه قد يحمل في داخله مشروعاً صغيراً من مشروع أصحاب الفيل: رغبةً في هدم كرامة إنسان، أو كيداً خفياً، أو غروراً بعلم أو مال، أو استقواءً على ضعيفٍ لا يجد من يدفع عنه. إن السورة لا تسمح للقارئ بأن يقف خارجها متفرجاً، بل تسأله عن الفيل الكامن في نفسه، وعن البيت الذي قد تمتد إليه يده بالعدوان، وعن الكيد الذي يظن أن خفاه يعصمه من الحكم.

وكم من إنسانٍ صار قلبه عصفاً مأكولاً قبل أن تفتت جسده! أكل الحسد صفاءه، وأكل الكبر تواضعه، وأكل الطمع مروءته، وأكل الحقد رحمته، فلم يبق من إنسانيته إلا صورةٌ تتحرك بين الناس. إن الهلاك لا يبدأ دائماً من الخارج، قد يبدأ حين يفقد القلب غذاء الإيمان، ويتحول إلى بقايا معانٍ نبيلةٍ كانت فيه ثم استهلكتها الشهوات.

وهنا تفتح الصورة باباً لتدبير أخلاقي لا يغيّر المعنى الأصلي للآية، بل يعبر منه إلى النفس: كما تفتت أجساد المعتدين تحت الحكم، تفتت الأرواح حين تأكلها خطاياها. وكما ضاع تماسك الجيش، يضع تماسك الشخصية حين تتوزعها الأهواء. وقد يبقى الجسد قائماً والاسم حاضراً والمكانة واسعة، بينما صار الداخل عصفاً مأكولاً لا يحمل ثمرةً ولا حياة.

النهاية التي كانت مختبئةً في البداية

عندما خرج أصحاب الفيل لم يكن أحدٌ ممن ينظر إلى صفوفهم يرى العصف المأكول، لكنه كان المصير الذي تسير إليه أقدامهم. وهذا يكشف الفرق بين ظاهر اللحظة وحقيقة المسار. نحن نرى الكائن في مرحلته الراهنة، أما الله فيعلم نهايته، ويرى الطريق كله حيث لا نرى إلا الخطوة التي أمامنا.

كانت صورة العصف مختبئةً داخل غرور الفيل؛ لأن القوة حين تنقطع عن الحق تحمل عنصر فنائها، والكيد حين يستهدف ما أراد الله حفظه يبدأ رحلة الضياع منذ أول قرار، والإنسان حين يتجاوز حد العبودية يضع قدمه على طريقٍ لا يعرف كيف ينتهي.

لكن البشر يفتنون بالبدايات الصاخبة؛ يرون الانطلاق ولا ينتظرون المآل، وقيسون المشروع بما جمع في يومه الأول لا بما سيبقى منه في يومه الأخير. أما القرآن فيرينا على قراءة الأشياء من خواتيمها: لا تسأل فقط كم يملك الباطل الآن، بل اسأل إلى أين يسير؛ ولا تنظر إلى ما جمعه الطاغية، بل إلى ما يحمله في مشروعه من أسباب السقوط؛ ولا تجعل صخب الحاضر يحو من قلبك صمت النهايات.

كان الفيل خبر البداية، وصار العصف خبر النهاية. وبين الخبرين يختار المؤمن أين يثبت بصره: أفيخاف من الفيل كأن الرحلة لا خاتمة لها، أم يرى العصف الذي سيكشف حقيقة الفيل حين يأتي أمر الله؟

ليست كل نهايةٍ مرئيةً في الدنيا

تعلمنا السورة أن الكيد لا يملك الخلود، لكن ذلك لا يعني أن كل متجبرٍ سيصير عصفاً مأكولاً أمام أعيننا في الدنيا. قد يموت الظالم على فراشه، وقد يستمر سلطانه زمناً، وقد لا يدرك المظلوم لحظة القصاص الدنيوي، لأن الدنيا ليست دار الجزاء الكامل. ولولا الآخرة لبقيت صفحات كثيرة من التاريخ مفتوحة بلا عدلٍ ظاهر، ولكن الله الذي جعل أصحاب الفيل عصفاً مأكولاً قد جعل للخلائق يوماً لا يضل فيه حق، ولا يختبئ فيه كيد، ولا تنفع فيه قوة.

إن سورة الفيل تقدم نموذجاً دنيوياً مرئياً للحكم الإلهي، ليكون شاهداً على القدرة التي ستقيم العدل كله في الآخرة. فالذي لم يعجزه الجيش لن يعجزه جمع الخلائق، والذي أصاب كل معتدٍ بما قدره لا تضيع عنده مظلمة، والذي حوّل القوة إلى فتات يستطيع أن يعيد الأجساد بعد أن تصير تراباً.

وبهذا لا يعلق المؤمن يقينه على ضرورة أن يرى كل عدلٍ بعينه قبل موته؛ تكفيه الشواهد التي أراها الله، ويكفيه صدق خبره، ويكفيه علمه أن عمر الإنسان أقصر من أن يكون مقياساً لتمام الحكم. قد تتأخر النهاية عن بصرنا، لكنها لا تتأخر عن علم الله، وقد يغيب عنا موضع القصاص، لكنه لا يغيب عن ملكه.

الصورة الأخيرة والدرس الباقي

تسكت السورة بعد ﴿مَأْكُولٍ﴾، ولا تحتاج إلى كلمةٍ أخرى. فقد قيل كل شيء: بطل الكيد، وأرسلت الطير، ووقعت الحجارة، وانهار الجيش، وبقي البيت. إن أي تفصيلٍ بعد تلك الصورة قد يخفف من حدتها؛ ولذلك تأتي النهاية مقتضبةً، تترك العصف في الخيلة، وتدع القارئ يقارن وحده بينه وبين الفيل.

لكن السورة وإن انتهت ألفاظها لا ينتهي فعلها في القلب. فهي تسأل كل جيل عن القوى التي يخافها، والأسباب التي يعيدها، والمشروعات التي يغتر بها، والمقدسات التي يفرط فيها، والضعفاء الذين يحتقرهم، والجنود التي لا يعرفها. تقول له: لا تتخذ بداية الكيد، فقد يكون مصيره في تضليل؛ ولا

تُحصر جند الله في الصور التي تعرفها، فقد يأتي الطير من خارج الحساب؛ ولا تحتقر الصغير، فقد تحمل الحجارة الصغيرة أمراً يهدم وهماً كبيراً؛ ولا تمنح القوة صفة البقاء، فقد يكون بين الفيل والعصف لحظة واحدة من حكم الله.

لقد أراد أصحاب الفيل أن يجعلوا من الكعبة شاهداً على عظمتهم، فجعلهم الله شاهداً على عظمتهم. أرادوا أن تذكر الأجيال قدرتهم على الهدم، فصارت الأجيال تتلو عجزهم عن الوصول. أرادوا أن يفرضوا على المكان معنى سلطانهم، ففرض القرآن على ذاكرتهم معنى العبرة.

وهكذا تغلق الآية الأخيرة مشهد الحدث، لكنها تفتح أمامنا المعنى الجامع للسورة: إن القوة التي لا تعرف ربها تحمل في قلبها بذرة العصف، وإن الكيد مهما أحكم مسيره لا يملك أن يضمن وجهته، وإن الله قد يحفظ ما يشاء بأضعف ما يراه الناس، وإن التاريخ في عمقه ليس سجلاً لما فعله الأقوياء وحدهم، بل سجل لما فعل الله بالأقوياء حين ظنوا أنهم خرجوا من حدود العبودية.

وباكتمال هذه الآية نكون قد أتممنا التدبير التفصيلي لآيات سورة الفيل جميعاً، آية آية؛ غير أن بناء الكتاب لم يكتمل بعد، فما تزال وراء المشاهد الخمسة

فصولٌ فكرية جامعة تكشف وحدة السورة، وفلسفتها في القوة، وصلتها بالبيت
والرسالة، ثم الخاتمة التي ترد المعاني كلها إلى القلب.